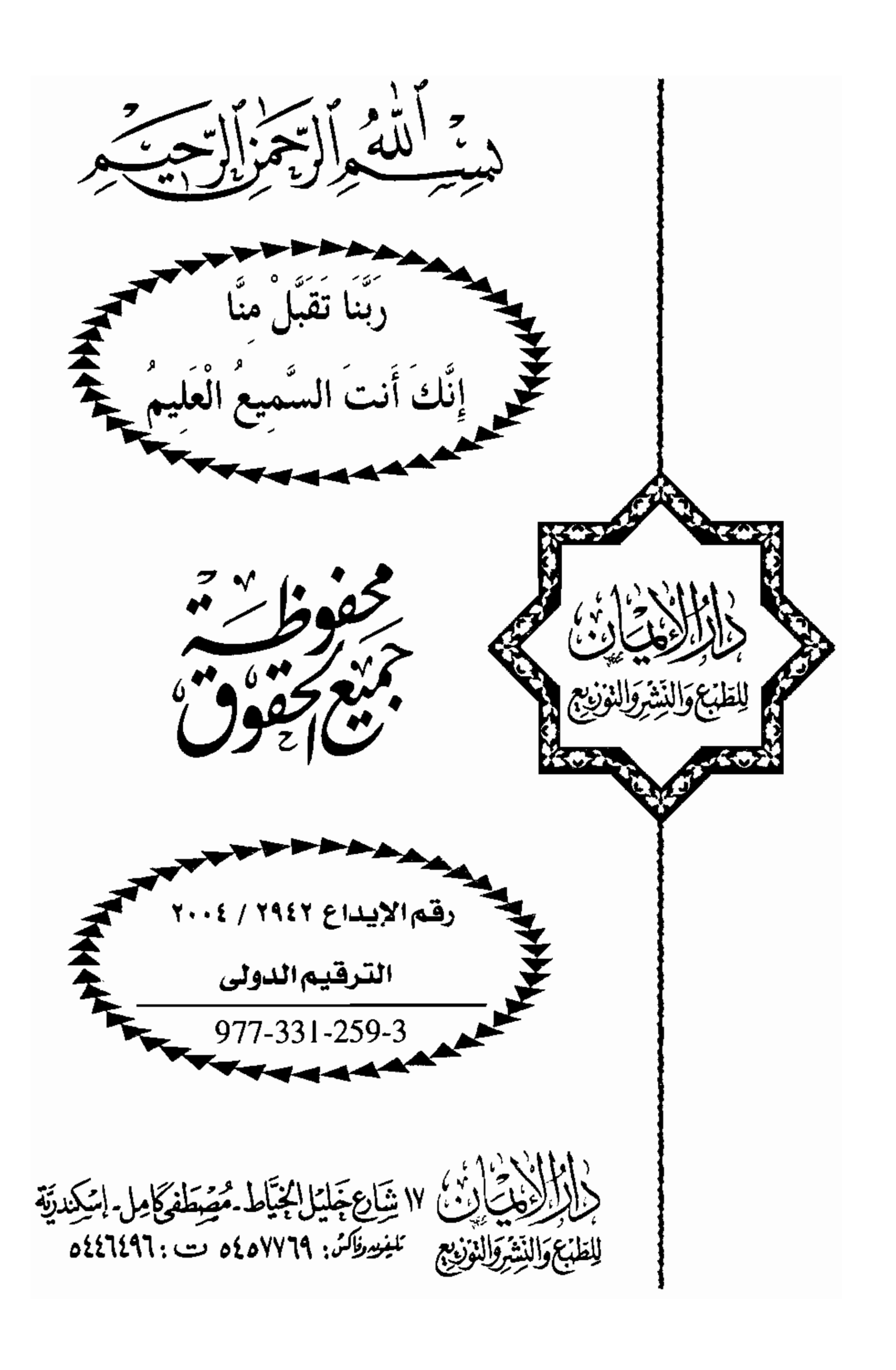
نظرات

في ألفاظ القرآن الكريم



بسم الله الرحمن الرحيم
رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
جميع الحقوق محفوظة
رقم الإيداع ٢٩٤٢ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولى
977-331-259-3
دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦



كتبها الأستاذ
أحمد محمد المغيني



دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩



تنويه

أتقـــدم بالشكر للأخ / يسري محمد عبد الله

صاحب ومدير دار الإيمان لما بذله من جهد في الإشراف والمراجعة والطبع، نفعنا الله بجهده .

وأشكر الأخ/ أبو هاشم لمراجعته أصول الكتاب وإضافته للهوامش .

جزاهما الله عنا وعن الإسلام خير الجزاء، ومتّعنا وإياهم بصحبة النبيين والشهداء .

أحمد محمد المغني

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علي أشرف المرسلين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلي آله وأصحابه وذريته وأهل بيته الكرام المطهرين. . وبعد.

موضوع الكتاب تأملات في الكلمات الأعجمية، وهو حصيلة تفكير وتأمل وتدبر على مدى سنوات طويلة، عشت فيها مع القرآن الكريم وهو يتحدث عن نفسه: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (سورة البقرة:٢). إنه الصدق في أسمى درجاته، والطهر في أنقى صوره، والبلاغة في أجمل أساليبها، إنه كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (سورة الحشر:٢١).

وأنت حين تدبر القرآن حق التدبر كما جاء في سورة محمد ﷺ: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (سورة محمد:٢٤)، ستجد نفسك خاشعًا أمام أسراره: جلال بلاغته، وشرف معانيه، وعظمة أغراضه، ومحكم آياته، وروعة تشريعه، وحديثه المعجز عن الماضي والحاضر والمستقبل، إنه حقًا كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة فصلت:٣). بل إنك ستجد الكثير عن أحداث عصرنا الحاضر، وما فيه من المؤامرات التي تخطط لأمة الإسلام في الظلام الحالك، ولكنك سوف تجد فيه ما نواجه تلك الأحداث القادمة، وفيه أيضًا البشرى بالنصر، ولكنه نصر مشروط وموعود لمؤمنين، أتقياء، مخلصين، وليسوا ضعافًا متخاذلين كما قال الحق في سورة آل عمران: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا

مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ (سورة آل عمران: ١٠٠)، خطاب موجه إلينا وإلى يوم القيامة، وكأن الآية الكريمة موجهة إلينا تلك الأيام بالذات بما فيها من تعجب وتوبيخ، لابتعادنا عن منهج الله ونسياننا لطاعته وشكره وذكره وتقواه.

وليس موضوع الكتاب تفسيرًا للقرآن الكريم، وإنما هو خواطر وتأملات لعدد من آياته، ومع رحاب القرآن والسنة وأقوال الصحابة ﷺ.

وهذا البحث لم يكتب فيه أحد من قبل، وإن كان موجودًا في ثنايا كتب التفاسير المختلفة كالطبري والآلوسي والسيوطي والزمخشري وغيرهم.

وكانت البداية أنني توقفت طويلاً عند الآية الكريمة من سورة العنكبوت: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة العنكبوت: ٦٤).

وكان السؤال: لماذا ذكر القرآن كلمة: ﴿الْحَيَوَانُ﴾ بدلاً من «الحياة»؟ وبالرجوع إلى كتب التفاسير كانت الإجابة: النسب وهو اختصار يدل على شيء منسوب لآخر، وهو معروف في اللغتين العربية والسريانية، والثانية هي لغة المسيح عليه السلام. وعليه فإن كلمة ﴿الْحَيَوَانُ﴾ على وزن فعلان هي النسب الذاتي على سبيل المبالغة، وبذلك يكون معنى الحيوان: دار الحياة الدائمة الخالدة، ومعنى الحياة: دار الحياة الدنيا الزائلة الفانية.

وبدأت الكتابة بعد سنين طويلة متوجهًا لله ـ سبحانه وتعالى ـ بالدعاء: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (سورة النمل:١٩). وكان ذلك في الليلة المباركة الجمعة ٢٢ جماد آخر ١٤٢٣هـ. أول أغسطس ٢٠٠٢م، وفرغت منه أول شوال ١٤٢٣ هـ/ ٥ ديسمبر ٢٠٠٢م بعون الله وتوفيقه، وقد وضعت نصب عيني ما رواه الترمذي عن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ».

وهذه الكلمات الأعجمية هي من باب ما توافقت فيه اللغات، وذلك لأن القرآن ليس فيه شيء من التراكيب الأعجمية، وهذه الكلمات لدليل من أدلة عديدة على أن القرآن من عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ، نزل به الروح الأمين على النبي الأمي العربي المكي الهادي لأوضح السبل، من لدن بعثته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، إلى جميع الثقلين: عرب وعجم، وأسود وأحمر.

اللَّهم اجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، وجلاء أحزاننا، ونورًا لنا في الأرض وذكرًا لنا في السماء، واغفر اللهم لوالديَّ ووالديّهما ولأصحاب الحقوق عليَّ، ولموتى المسلمين من شهدوا لك بالوحدانية ولنبيك محمد ﷺ بالرسالة، وماتوا على ذلك.

اللَّهم ارحمنا بالقرآن واجعله إمامًا ونورًا وهدى ورحمة، واجعله لنا حجة يا رب العالمين.

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا ﴾ (سورة نوح:٢٨)، إنك سميع قريب مجيب الدعاء يا رب العالمين.

الكاتب الإسلامي

أحمد محمد أحمد المغيني

تمهيد

من المعروف أن الجزيرة العربية هي المهد الأول الذي ولدت فيه الفصحى، وأنه من إقليم الحجاز انطلق شعاع النور من السماء يبدد ظلمات الجهل والشرك، ويملأ الدنيا ضياء وإيمان.

وعندما شرف الله ـ سبحانه وتعالى ـ العرب بأن اصطفى سيد أبنائهم ليكون نبيًا خاتمًا، أنزل عليه قرآنًا عربيًا لا مثيل له، ولن يكون له مثيل أبدًا في الفصاحة والبيان، ووجه الإعجاز فيه أن كل فصحاء العرب وقفوا في خشوع ورهبة أمامه، من أنكر ومن آمن، الكل سواء بسواء، بل إنه كان سببًا هامًا لإعلان إسلامهم، بل وإنهم أقروا واعترفوا بأنه ليس من كلام البشر، كما حدث مع عمر بن الخطاب ﷺ في قصة إسلامه المعروفة، وما كان عناد طواغيت الوثنية القرشية إلا خوفًا على أحلامهم التي توارثوها خلف عن سلف، وليس إنكارًا لهذا القرآن بما فيه من إعجاز حيث يقول الحق في محكم تنزيله: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ** ﴾ (سورة سبأ: ٤٣).

لقد كان العرب أهل البلاغة في قمتها: التكامل في الشعر الجاهلي، والأسواق الأدبية، والمذهبات التي تعلق على أستار الكعبة، وعندما تحداهم القرآن بأن يأتوا بسورة من مثله، لم يقبلوا هذا التحدي، لأنهم أحسوا أن هذا فوق المقدرة والاستطاعة.

واللغة العربية هي واحدة من اللغات السامية، ومن المعروف أنها من أغنى اللغات الإنسانية في تراثها وروعتها وجمالها وتنوع أساليبها وتراكيبها ومفرداتها، وقد

زادت أهميتها بفضل القرآن، فهي لغة عالمية في الدنيا، وهي لغة أهل الجنة في الآخرة، ومن تعلمها أو علمها لغيره له الأجر من الله تعالى، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوصي الولاة بتعليمها لمن لا يحسنها حتى يلتمس بها حسن المنطق.

وقد روي عن وهب بن منبه أنه وجد في القرآن كل اللغات التي كانت موجودة حين نزل، وذكر عددًا من الكلمات الفارسية والحبشية والسريانية والرومية وغيرها، وهي من الكلمات التي كانت تستعملها العرب وتعرفها فيما بينهم، فلما استعملها العرب صارت بمنزلة العربية، والرأي أن هذه الكلمات الأعجمية ما هي إلا حجة على الناس جميعًا إلى يوم القيامة.

إن الإعجاز الإلهي في القرآن يؤكد بكل الصدق واليقين والإيمان المطلق، بأنه لا يمكن إلا أن يكون وحيًا من السماء لآخر أنبيائه ورسله، لأنه أبعد ما يكون عن حدود العقل البشري.

يقول سبحانه: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ (سورة النساء: ٨٢).

والله سبحانه تكفل بحفظه، وجعله ميسرًا للحفظ والتلاوة والفهم، ولن يتأتى ذلك إلا بتعلم اللغة العربية بمفرداتها وقواعدها وأساليبها البلاغية، مع الإلمام بأقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم، ومعرفة أسباب التنزيل والرجوع إلى كتب التفاسير وفيها الكثير من أقوال الصحابة رضي الله عنهم، ومن التفاسير التي تناسب كل المستويات: تفسير الجلالين - قديمًا -، وتفسير الإمام الأكبر محمد سيد طنطاوي - حديثًا -.

ومن الأهمية ضرورة الابتعاد كلية عما يقال التفسير العصري لأن أصحابه لا يملكون المعرفة الحقيقية لفهم معانيه ووضع آياته في مواضعها، ورد المتشابه منه إلى محكمه. وعلى الله قصد السبيل.

جِبْرِيلُ عليه السلام

يقول الحقُّ في محكم كتابه:

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ (سورة البقرة: ٩٧-٩٨).

«جبريل وميكائل وإسرافيل» ومعنى جبروميك وسراف «عبد» وايل «الله» وذلك لأن كل اسم فيه «ايل» فهو الله بالعبرانية.

جبريل، أمين الوحي، شديد القوى، الروح، روح القدس، الروح الأمين، كريم عند الله، ذو قوة ومكانة، مطاع في السموات، أقرب الملائكة عند الله.

وسبب الآية: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ أن اليهود سألوا الرسول ﷺ عمن يأتيه من الملائكة، فقال: جبريل عليه السلام، وما من نبي قبلي إلا وبعثه الله ـ سبحانه وتعالى ـ كان وليه، فقالوا: عند ذلك نفارقك، ولو كان وليك سواه من الملائكة لبايعناك و، صدقناك، فقال: فما منعكم أن تصدقوه وهو أمين الوحي؟

قالوا: إنه عدونا.

وقد جاء في تفسير ابن كثير: قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعًا أن هذه الآية نزلت جوابًا لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن

جبـريل عدو لهم، وأن مـيكائيل ولي لهم، وهم يزعمـون أن جبريـل ينزل بالحرب والشدة والقتـال. ومن الثابت أن عمر بن الخـطاب ﷺ كان يأتي اليهود فـيسمع من التوراة، فـيتـعجب أشد العـجب بأن ما لم يحـرفوه يتـوافق مع ما جاء مـن الكتاب والسنة، ذلك أنهم حرفوا مـا جاء تصديقًا بالنبي الخاتم ﷺ، ولقـد قال لهم: أما والله ما جئتكم لحبكم ولا لرغبة فيكم، ولكن جئت لأسمع منكم، أتعلمون أنه نبي؟ قالوا: نعم وإنه نبـي آخر الزمان بصـفته ونعتـه، قال: فلم لا تؤمنون به وبرسـالته؟ قالوا: إنه قـرن نبوته بعدونا، ثم فـارقهم عند ذلك وتوجه إلى النبي ﷺ ليـحدثه حديثـهم، فعلم أن الله غضب لجـبريل على من عـاداه، وأنزل الآية الكريمة، وقال رسول الله ﷺ بعدها: **«من عادى لي وليًا فقد بارزني بالحرب»**.

وجبريل عليه السلام هو على رأس المبلغين بالرسالات على من يشاء الله سبحانه وتعالى كمـا جاء في سـورة الشـعراء: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾ (سورة الشعراء: ١٩٣-١٩٥).

ومن الثابت أن جبريل ومعه كوكبـة من الملائكة تقوم بتثبيت المؤمنين في القتال، وقد حدث هذا في غـزوة بدر الكبرى وهي أول معركة من معـارك الإسلام لفاصلة، وقد أقبلت قريش وهي موقنة بأن النصر حليفها بكل مقاييس البشر المحدودة، وعندما أغفى الرسول ﷺ إغفاءة واحدة، ثم رفع رأسه، وقال: أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسـه يقوده، على ثنايا النقع، وخلفه عدد من الملائكة. ويقال أن إبليس اللعين ولى هاربًا وهو يردد: يا قوم إنني أرى ما لا ترون. كذلك أن جبـريل كان ينزل على صـورة إنسان، كـما جـاء في الحديث الصـحيح الذي أورده البخاري وغيره، فقد جاء ما مـعناه: أنه طلع على الصحابة رجل شديد بياض الثياب

شديد سواد الشعر، ولا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه أحد منهم، وأنه سأل: ما الإسلام وما الإيمان وما الإحسان ومتى الساعة؟ وكلما أجابه ﷺ كان يقول: صدقت يا رسول الله.

وفي آخره قال ﷺ: عليَّ بالرجل، فطلبناه كل مطلب فلم نقدر عليه، فقال: «هذا جبريل أتاكم ليعلمكم دينكم».

وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الدين، وقاعدة مهمة من قواعد الإسلام، وهو أم السنة، حتى أن كثيرًا من الفقهاء استفتحوا به كتبهم.

ومما رواه الطبراني عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: **«قال لي جبريل عليه السلام: أحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه، وعش ما شئت فإنك ميت»**، وقال في آخره: **«أوجز لي جبريل في الخطبة»**.

وجبريل وسائر الملائكة منزهون عن الآثام، لا يعصون الله، يسبحون له طرفي الليل والنهار، وهم يصلون على النبي ﷺ وعلى أمته من المؤمنين، يقول سبحانه: ﴿ **لَاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ (سورة التحريم: ٦)، والملائكة أعظم جنود الله تعالى منهم ملائكة الرحمة ومنهم ملائكة العذاب، وملائكة قد وكلوا بحمل العرش، وملائكة قد وكلوا بعمارة السموات بالصلاة والتسبيح والتقديس، ومنهم من وكلوا بالجبال والسحاب والمطر والرحم، ومنهم الحفظة وسؤال القبر، والأفلاك والشمس والقمر، والنار والجنة، وغيرها مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى. وما بين سورة البقرة وسورة القدر تكاد لا تخلو سورة من القرآن إلا وذكرت الملائكة، إما تصريحًا أو تلويحًا أو إشارة، وأما الأحاديث الشريفة ففيها الكثير عنهم كأحد الأصول الخمسة لأركان الإيمان.

ففي القرآن سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٢٦-٢٨).

وأما السنة فيقول ﷺ: **«خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم ما وصف لكم»** (رواه مسلم).

وقد توسل ﷺ إليه ـ سبحانه وتعالى ـ بربوبيته العامة، والخاصة لرؤساء الملائكة الثلاثة: جبريل الموكل بالوحي، وميكائيل الموكل بالقطر، وإسرافيل الموكل بالنفخ في الصور، أي بحياة القلوب وحياة الأرض وحياة ما بعد الموت: **«اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»** (رواه البخاري).

ولكن لماذا اختار الله ـ سبحانه ـ جبريل لأعظم الرحمات الإلهية وهي حياة الأرواح والقلوب؟

يقول ابن مسعود ﷺ: بعث الله جبريل ﷺ إلى الأرض ليأتيه بطين منها، ولم يكن آدم قد خلق بعد، قالت الأرض: أعوذ بالله منك أن تقبض مني أو تنقصني، فرجع جبريل ولم يأخذ منها، وقال: يارب إنها عاذت بك فأعذتها، أما ملك الموت عندما عاذت منه، قال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره ـ سبحانه وتعالى ـ من تفسير القرطبي ـ وهكذا نجد موقفين كلاً منهما على النقيض، ولكن كلاهما على حق، جبريل وقف عند مستوى الرحمة، وملك الموت عند مستوى التنفيذ الصارم، ولذلك كلف الله جبريل بحمل رحمة كتبه إلى الأنبياء والمرسلين، وكانت آخرها الرحمة المهداة إلى يوم القيامة: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأنبياء: ١٠٧).

■ أما السور الكريمة التي بدأت بذكر الملائكة فهي:

(**سورة فاطر**) وتبين أن من بين أعمالها رسلاً إلى الأنبياء: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (سورة فاطر:١)، ومن الآية ما فيه وصف لهم بأنهم أصحاب أجنحة، بعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة، وبعضهم له أربعة، ينزلون بها من السماء إلى الأرض، ويعرجون بها إلى السماء (تفسير القرطبي)، ولقد رأى رسول الله ﷺ جبريل وله ستمائة جناح، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب (صحيح مسلم)، وقال جبريل عليه السلام: «**يا محمد كيف لو رأيت إسرافيل، إن له اثنى عشر ألف جناح، منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب، وإن العرش لعلى كاهله**» (الكشاف).

و(**سورة الصافات**) وفيها وصف للملائكة وهي تصف نفوسها في العبادة وأجنحتها في الهواء تنتظر ما تؤمر به، وهي تسوق السحاب، وتتلو القرآن: ﴿ **وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا** ﴾ (سورة الصافات: ١-٣).

و(**سورة النازعات**) وهي تصف الملائكة بأنها تنزع أرواح الكفار بشدة، بينما تخرج أرواح المؤمنين برفق، وهي تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة، وهي في السماء أو في الأرض لا تدبير لها إلا بأمر ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ **وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا** ﴾ (سورة النازعات: ١-٥).

أما البشرى لأمة محمد ﷺ ففي آخر سورة بترتيب المصحف وذكرت فيها الملائكة وهي (**سورة القدر**)، وفي آخر آية منها: ﴿ **سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ** ﴾ (سورة القدر:٥). بمعنى أن وقت طلوع الفجر سلام، لأن الملائكة يتقدمهم جبريل عليه السلام لا تمر بمؤمن ولا مؤمنة إلا سلمت عليه.

تلك هي البشرى المخصوصة والمقيدة بزمن معين وهو طلوع فجر ليلة القدر، أما البشرى العامة الجامعة فهي اسم القرآن الكريم «بشرى»، والذي لم يوصف أي كتاب سبقه بهذا اللفظ، وإن كانت قد اشتركت معه في غيرها من الأسماء مثل: هدى ورحمة وكتاب ونذير وفرقان وإمام ومبين، وذلك لأن القرآن الكريم له خصوصية البشرى حيث أنه آخر الكتب، وآخر أنباء الخير، فهو الحلقة الأخيرة في صلة السماء بالأرض، وأنه آخر ما نزل به جبريل ـ عليه السلام ـ ختامًا بكلمة الله، حين بلغ الكمال غايته والتي اختص بها أشرف خلقه، أرسله على حين فترة من الرسل، فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل، وافترض على العباد طاعته وتعزره وتوقيره ومحبته، والقيام بحقوقه، وسدد دون جنته الطرق، فلن تفتح إلا من طريقه ﷺ، والبشرى العامة الجامعة مرتبطة بدرجات العبادة: الإسلام والإيمان والإحسان، ففي آية (النحل) ارتبطت بالإسلام: ﴿**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ (سورة النحل:١٠٢)، وفي آيتي (النمل) ترتبط بالإيمان: ﴿**طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ (سورة النمل:١-٢)، وفي آية (الأحقاف) ترتبط بالإحسان: ﴿**وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ**﴾ (سورة الأحقاف:١٢).

وهكذا فالقرآن الكريم بشرى لثلاثة وهم: المسلمون والمؤمنون والمحسنون، وأما غيرهم فهو نذير ووعيد.



رَاعِنَـا

■ يقول الحقُّ في محكم كتابه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (سورة البقرة: ١٠٤-١٠٥).

﴿ رَاعِنَا ﴾ كانت بلغة لسان اليهود في المدينة، وقد سمع سعد بن معاذ رضي الله عنه أناسًا من اليهود خاطبوا بها النبي ﷺ ، فقال: «**لئن سمعتها من احد منكم لأضربن عنقه**».

وهي بلغة اليهود سب من الرعونة، ولذلك جاء النهي للمؤمنين عنها، ويقولوا ﴿ انظُرْنَا ﴾ وقد بين القرآن أن ما يؤمرون به سماع قبول، لأن كلمة ﴿ رَاعِنَا ﴾ في لغة اليهود العبرية بمعنى الاستهزاء والسخرية.

وتبين الآية وجوب الأدب مع رسول الله ﷺ وحرمة الإساءة إليه بقول أو عمل هذا مع الجهل وعدم العلم، أما مع العلم باللفظة أو الحركة فإن ذلك هو الكفر بعينه، ولقد كان اليهود ككل أهل الكتاب في انتظار النبي الخاتم ﷺ ، وبعد أن كانوا يتوعدون مشركي العرب بقرب ظهور نبي آخر الزمان والذي يعرفونه بصفته ونعته في التوراة قبل تحريفها على أيديهم، وأنهم سيبادرون إلى الإيمان برسالته لأنه أخو موسى بن عمران ـ عليهما السلام ـ، وكانوا يتوعدونهم بالقتل كعاد وإرم، إذا بهم يتراجعون حسدًا وحقدًا عندما علموا أن خاتمة الرسالات من بني إسماعيل وليس من بني يعقوب عليهما السلام.

ولقد جاءت قصتهم بما فيها من الكبر المدمر والحسد القاتل في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (سورة البقرة: ٨٩).

وهذا يفسر حقدهم الأسود الذي بلغ مداه، وقد أفزعهم ومعهم غلاة الكفر المدُّ الإسلامي في الغرب: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (سورة الصف: ٨).

ولو أننا استعرضنا تاريخهم مع الإسلام لوجدناه: تكبر وغرور، وقسوة وجمود، وعداوة وحقد، مع غلظة في القلب وعناد في الحق.

فها هم اليهود من بني قينقاع ينقضون العهود ويثيرون الفتن، بل وكانت حربهم النفسية من أهم الأسباب لهزيمة المسلمين في غزوة أحد، واندلعت شرارة الحرب حين عمد أحدهم إلى طرف ثوب امرأة مسلمة وعقدها إلى ظهرها وهي غافلة، فلما قامت انكشفت عورتها، فصاحت: وإسلاماه، فانتفض أحد المسلمين وقتل البائع، فشدت اليهود عليه وقتلوه. وبعدها نفذ صبر المسلمين لظلم اليهود وانتهاكهم الحرمات، وحاصروهم أشد الحصار حتى اضطروا إلى التسليم وخرجوا من المدينة أحياء سالمين كما أمر الرسول ﷺ.

أما يهود بني النضير فقد خربوا بيوتهم بأيديهم كما أخبر القرآن في سورة الحشر، وبعد أن خانوا العهد وانضموا إلى مشركي مكة، بل وتعهد أحدهم بأن يلقي حجرًا على النبي ﷺ فيقتله، وقد أخبره جبريل عليه السلام بما أضمره اليهود له كما جاء في الآية من (سورة المائدة): ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة المائدة: ١١)، وقد أمره الله أن يحاصرهم، حتى ينتهي الأمر بإجلائهم عن المدينة.

أما يهود بني قريظة فكان موقفهم في موقعة الأحزاب شاهداً على نذالتهم عندما منعوا الطعام والمؤن عن المسلمين، وكان الرسول ﷺ قد أعطاهم الأمن والأمان.

وأما يهود خيبر وكانوا أشد خطراً على الإسلام لكثرة عددهم، ومع هذا أعطاهم النبي ﷺ العهد بعدم التعرض لهم والإبقاء على دينهم مقابل دفع الجزية، بل وأعاد إليهم صحائف من التوراة كانت من بين الغنائم.

وهكذا تتضح سماحة الإسلام كما بين القرآن الكريم: ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ (سورة الأنفال: ٦١).

وقد جاء في تفسير ابن كثير الدمشقي: نهى **الله** ـ سبحانه وتعالى ـ عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيض ـ عليهم لعائن **الله** ـ فإذا أرادوا أن يقولوا: «اسمع لنا»، يقولوا: ﴿ راعنا ﴾ ويورون بالرعونة، وأنهم إذا سلموا يقولون «السام عليكم» ولذلك نهى **الله** التشبه بهم قولاً وفعلاً ـ من تفسير سورة البقرة ـ والنداء في الآية الكريمة هو أول خطاب في السورة، وفيه يذكرهم المولى سبحانه وتعالى بأن الإيمان يقتضي من صاحبه أن يتلقى أوامره ونواهيه بحسن الطاعة والامتثال، وفيه تنبيه لأدب جميل بتجنب الألفاظ التي توهم الجفاء في مقام إظهار المودة.

وقد توعد **الله** من يتشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم وعبادتهم وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولا نقر عليها، ومع هذا أمرنا بالعدل والقسط مع من سالمنا وتقديم البر والإحسان إليهم، وذلك لأن الله يحب العادلين في جميع أمورهم وأحكامهم، يقول تعالى: ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ (سورة الممتحنة: ٨).

والله ـ سبحانه ـ نبه المؤمنين على ما هم فيه من الشرع التام الكامل الذي شرعه لنبيهم الخاتم محمد ﷺ، ولأن الطاعة زينت لأهلها، كما زينت الظلمات لأهل الكفر والشرك والضلال، فإنه لا يحل لمسلم أن يسب عبادتهم أو يتعرض إلى ما يؤدي ذلك، يقول سبحانه: ﴿ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة الأنفال: ١٠٨). وحكم الآية باق وفيها دليل على وجوب سد الذرائع.

ولقد بين القرآن في أكثر من موضع سياسة التعامل مع غير المسلمين بوجه عام، ومع اليهود بوجه خاص لأنهم أشد عداوة للمسلمين، ففي الآية من سورة آل عمران: ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ (سورة آل عمران: ٢٨).

ومنها نتبين أن أخوة الإسلام بما فيها من إيثار وتعاون وحب وعطاء تكون للمسلمين أولاً وأخيرًا، وفي حالة الخوف من بطشهم فيكون الاستثناء مع بقاء القلب عامرًا بالإيمان وجانحًا جهة الولاء للإسلام، مع التأكد إلى حد اليقين بأن الله سوف يخيب ظنهم عندما تتحقق نبوءة الحبيب المصطفى ﷺ والذي لا ينطق عن الهوى بأن الساعة لن تقوم حتى يقاتل المسلمون اليهود، وأنه سوف يسحقهم، وهذا لن يكون إلا بتقوى الله، لأن النصر مشروط وموعود للمؤمنين حقًا، يقول تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (سورة آل عمران: ١٢٦)(١).

(١) وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (سورة آل عمران: ١٣٩).

لقد أخبر القرآن بأنه سوف يتم طردهم مرتين، وقد حدثت الأولى بأن تفرقوا على يد العبد الصالح محمد ﷺ والذي أعطاهم الأمن والأمان، ولكنهم نقضوا العهد والمواثيق، وحينما يأمر الله بتفرقهم للمرة الثانية أشتاتًا في أرجاء الأرض على يد عباد الله أولي بأس شديد كما بين القرآن: ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ (سورة الشعراء: ٢٢٧).

سوف نرى عجائب قدرته سبحانه وتعالى حينما يتحقق حكمه عليهم جزاء لهم على معصيتهم وكفرهم وفسادهم في الأرض، يقول جلَّ وعلا: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ (سورة الإسراء: ٤-٦).



الجِبْتِ والطَّاغُوت

▪ يقول الحقُّ في محكم كتابه:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٤٩) انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا (٥٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (٥١) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾ (سورة النساء: ٤٩-٥٢).

«الجبت» بلسان الحبشة شيطان، «والطاغوت» الكاهن.

وعن ابن عباس قال: الجبت: الأصنام والطاغوت رجل من اليهود يدعي كعب ابن الأشرف.

واختار الطبري أن المراد بهما كل ما يعبد من دون الله سواء صنمًا أو شيطانًا جنيًا أو آدميًا، فيدخل فيه الساحر والكاهن، وأما قول عكرمة إن الجبت بلسان الحبشة (الشيطان) فقد وافقه سعيد بن جبير على ذلك، لكنه عبر عنه بالساحر.

وسبب نزول الآيات الكريمة في كعب بن الأشرف ونحوه من علماء اليهود لما قَدِموا مكة وشاهدوا قتلى بدر وحرضوا المشركين على الأخذ بثأرهم ومحاربة النبي ﷺ، وقد فضحهم القرآن الكريم بإيمانهم بالجبت والطاغوت وهما صنمان لقريش وإقرارهم بأن كفار مكة أفضل من محمد ﷺ الذي فارق دين آبائه.

وقد جاء في تفسير الآية (٤٩) لابن كثير أنها نزلت في اليهود والنصارى حين قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه. وكانوا يقدمون الصبيان أمامهم في الدعاء والصلاة يؤمونهم ويزعمون أنهم لا ذنوب لهم.

وعن ابن عباس قال: كان اليهود يقدمون صبيانهم يصلون بهم، ويقربون قربانهم ويزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب، وكذبوا لأنه سبحانه وتعالى لا يطهر ذا ذنب بآخر له.

وقيل أنها نزلت في ذم التمادح والتزكية، قال رسول الله ﷺ: **«إذا كان أحدكم مادحًا صاحبه لا محالة، فليقل: أحسبه كذا، ولا يزكي على الله أحدًا»** (صحيح البخاري).

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «من قال: أنا مؤمن فهو كافر، ومن قال هو عالم فهو جاهل، ومن قال هو في الجنة فهو في النار».

وقد قال ذلك يهود المدينة ونصارى نجران لما تناظروا بين يدي النبي ﷺ ولم يكن لتلك القولة الباطلة حجة أو دليل، يقول سبحانه: ﴿**وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (سورة البقرة: ١١١).

ولقد بين الله سبحانه أن اليهود عندما قالوا لكفار مكة بأنهم خير من محمد ﷺ ليستميلوهم لنصرتهم، وقد أجابوهم وجاءوا معهم يوم الأحزاب حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق، فكفى الله شرهم، وأهلكهم وكان مصير من قتل منهم لا إلى الجنة ـ كما يزعمون ـ ولكن إلى جهنم وبئس المصير، وذلك لأن الجنة لن يدخلها إلا كل موحد أنقاد لأمر ربه ولم يستسلم للشيطان. يقول سبحانه: ﴿**بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ (سورة البقرة: ١١٢)، ومن بلاغة القرآن أنه جعل شرطين لدخولهم الجنة، الأول قيد في الثاني بمعنى إن زعمتم أنها لكم صدقًا، فتمنوا ما يوصلكم إليها وهو القيد الثاني أي الموت،

وهذا لن يحدث لعلمهم أنهم في نار جهنم لتكذيبهم النبي الخاتم ﷺ، يقول سبحانه: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة البقرة: ٩٤-٩٦).

ثم إن اليهود ادعوا أن الله لن يعذبهم إلا أيامًا قليلة وهي أربعين يومًا مدة عبادة آبائهم العجل، وقد أكد القرآن أنهم سوف يخلدون في نار جهنم، وذلك لإنكارهم نبوة محمد ﷺ، وغيروا صفته في التوراة وكتبوها على غير ما أنزلت، يقول سبحانه: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (سورة البقرة: ٧٩-٨١).

لقد استطاع إبليس أن يزين لهم ويوسوس في صدورهم المريضة أنهم شعب الله المختار في تزكيتهم لأنفسهم ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، واتكالهم على أعمال آبائهم الصالحة، وقد حكم الله أن أعمال الآباء الصالحة لا تجزي عن الأبناء شيئًا.

وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: **«بعثت داعيًا ومبلغًا وليس إليَّ من الهداية شيء، وخلق إبليس مزينًا وليس إليه من الضلالة شيء»**. أي أن إبليس ما عليه إلا يزين ويوسوس ولا يملك أكثر من ذلك، ولقد اختار ذلك اليهود ومن على شاكلتهم من أهل الضلال والكفر، ومن يحبونهم على ما هم فيه ويرى أنهم على حق كما أن الإسلام على حق، وشاركهم في أعيادهم وبمظاهر الشرك التي يفضلونها، يقول الله

سبحانه: ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (سورة المجادلة: ٢٢).

أولئك حزب الله الفائزون والذين يتبعون أمره ويجتنبون نهيه، أما اليهود ومعهم حزب الشيطان، استسلموا لغواية الشيطان بأن ابتعدوا عن الصراط المستقيم، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ألسنة أسلافهم من أهل الضلال وتحت مسميات جوفاء من الكلام الباطل، والآراء المتهافتة، والخيالات المتناقضة، حين تقذف القلوب المريضة المظلمة بالباطل على أنه حق، والخطأ على أنه صواب، فضلوا وأضلوا، وكانوا جميعًا في جهنم وبئس القرار؛ يقول سبحانه في محكم كتابه منذ أن كان الشيطان لآدم وحواء عليها السلام:

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (سورة الأعراف: ١٦-١٧).

وقد جاء في تفسير ﴿ صِرَاطَكَ ﴾: هو كتاب الله، الدين الواضح، الإسلام، الحق، وجميعها الطريق إلى الله تعالى.



هَيْتَ لَكَ

▪ يقول الحقُّ في محكم كتابه:

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (سورة يوسف: ٢٣-٢٤).

﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾: أي هلم والكلام للتبين وفي قراءة بكسر الهاء وأخرى بضم التاء (تفسير الجلالين)، وجاء في أكثر من مصدر أن عكرمة قال «هيت» بالحورانية هلم، وقد وافقه عليه الكسائي والفداء وغيرهما، وعن السدي أنها لغة قبطية معناها هلم لك، وعن الحسن أنها بالسريانية، وقال أبو زيد الأنصاري هي بالعبرانية وأصلها هيت لج أي تعاله فعربت، وقال الجمهور هي عربية معناها الحث على الإقبال، والله أعلم.

وقد نزلت (سورة يوسف) في عام الحزن ليعلم ﷺ أن بعد الشدة فرجًا وبعد العسر يسرًا، وأنه سبحانه وتعالى كما نجى يوسف عليه السلام من المحن التي أصابته، فإنه قادر على إعزاز نبيه الخاتم ﷺ وإعلاء شأنه وإظهار دينه.

وسورة يوسف جاءت لتحمل البشر والأنس والراحة له ﷺ، وقيل لا يسمع بها محزون إلا استراح إليها.

وقصة سيدنا يوسف عليه السلام معروفة طلبت زليخا امرأة العزيز أن يواقعها، فقال: أعوذ بالله من ذلك. ولقد همت به ضربًا لأنه ضايقها، ولأنه أخرج حفيظة نفسها، ووجدا زوجها عند الباب، فنزهت نفسها، ثم قالت: ما جزاء من أراد الزنا بزوجتك؟، وقد برأ يوسف نفسه وشهد شاهد من أهلها، ويقال إنه ابن عمها وكان في المهد.

ولقد برأه الله مرتين: الأولى عندما أنطق الغلام، والثانية عندما قال في شأنه: ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (سورة يوسف: ٢٤)، ولقد اعترف الشيطان أنه لا سلطان على هؤلاء الذين أخلصهم الله واصطفاهم له.

كذلك برأه النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم حين وصفه بأنه الكريم بن الكريم، وأيضًا برأته زليخا كما ذكر القرآن الكريم: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (سورة يوسف: ٥١).

جاء في تفسير ابن كثير الدمشقي ـ رحمه الله ـ: يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه، فراودته عن نفسه، أي حاولته على نفسه ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حبًا شديدًا لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له وأغلقت أقوال الناس، فامتنع من ذلك أشد الامتناع، واختلفت أقوال الناس وعبارتهم في هذا المقام، قيل المراد بهمه بها خطرات حديث النفس، وقيل هم بضربها، وقيل تمناها زوجة، وقيل معناها أنه لم يهم بها، وإنه عليه السلام من المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار، ذلك أنه اختار السجن بعد ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال أنه مع شبابه وجماله وكماله وتدعوه سيدته وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع ذلك

ويختـار السجن على ذلك خـوفًا من الله ورجاء ثوابه ـ من تفسيـر سورة يوسف ـ ويقال أنهـا وقفت على ظهر الطريق حتى مـر يوسف فقالت: الحمـد لله الذي جعل العبيـد ملوكًا بطاعته، والملوك عـبيدًا بمعصيـته. وأنها تزوجها بعـد ذلك، وقال لها: أليس هذا خـيرًا مما كنت تريدين؟ قـالت: أيها الصـديق لا تلمني، فإني كـنت امرأة حسناء جميلة ناعمة في ملك ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك على ما رأيت، فيزعـمون أنه وجدها عذراء فأصابها، فولدت له رجلين.

وعلى المسلم أن ينتبه إلى ما جاء في الإسرائيليات من افتراء اليهود وكذبهم على الأنبياء والملائكة عامة وعلى يوسف وداود خاصة.

ولذلك يجب الإيمان يقـينًا أنه سبـحانه وتعـالى عصم يوسـف عن الفحـشاء، وحماه من مكر النساء، فهـو سيد النجباء السبعة الأتقيـاء، المذكورين في الصحيحين عن خاتم الأنبياء منهم: «رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله»، وقد جاء في (جوهرة التوحيـد) للشيخ اللقاني عن عصمة الأنبيـاء: «وعصمة الباري لكل حتمًا، وخص خير الخلق أن قد تمما به الجميع رتبًا وعمًا».

ومن خواطر الشيخ عبد الحميد كشك ـ رحمه الله ـ:

هناك فرق دقيق بين قوله تعالى: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ﴾ وبين لنصرفه عن السوء، معنى ذلك أنه ثابت في مكانه لا يتحرك والسوء والفحشاء يحاولان أن يقرباه فصرفنا السوء والفحـشاء عنه، تقـول له: ما أجـمل عينيك! فـيقـول: هي أول ما يسيل مـني بعد الموت، فتقول: ما أجمل شعرك! فيقول: هو أول ما يتساقط مني بعد الموت، فتقول: ما أجمل جسـمك! فيقول: هو أول ما يتسـاقط مني بعد الموت، تقول له: هيت لك وهي اسم فعل أمر بمعنى أقبل، وفي قراءة أخرى «هيئت لك» بمعنى تهيأت لك فأقبل

عليَّ، قال: معاذ الله، يوسف ﷺ ثابت ثابت، والسوء والفحشاء تحاولان أن تقرباه، فصرف الله عنه السوء والفحشاء، ولم يصرفه هو عن السوء والفحشاء لأنه متمسك بحبل الله المتين، فأول من شهد ببراءة يوسف هو الله رب العالمين (خواطر عن الآية ٢٤).

ومن لطائف التفسير ما ذكره فضيلة الإمام الأكبر محمد سيد طنطاوي:

والمتأمل يرى أن القرآن الكريم قابل دواعي الغواية الثلاث التي جاهرت بها امرأة العزيز، والمتمثلة في المراودة، وتغليق الأبواب، وقولها هيت لك، بدواعي العفاف الثلاث التي رد بها عليها يوسف ﷺ والمتمثلة في قوله ـ كما حكى القرآن عنه ـ: معاذ الله، إنه ربي أحسن مثواي، إنه لا يفلح الظالمون، وهكذا يصون الخالق ـ عزَّ وجلَّ ـ عباده المخلصين، من كل ما يسوء ويُؤذي ويشين (خواطر عن الآية ٢٣).

وهكذا تنتهي القصة والتي ذكرها القرآن في سورة بأكملها، وفيها من الآيات والحكم والدلالات والمواعظ والبينات الكثير، ولبيان أن بعد الضيق فرجًا، فقد سجنوه ظلمًا وعدوانًا، ورغم تأكدهم لبرائته، ليكون ذلك أقل لكلام الناس وليظهروا لهم أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها، وكما أنعم الله عليه بالخلاص من السجن، وعدم قبوله الخروج منه حتى تبرأ ساحته من التهمة، مكن سبحانه له في أرض مصر، فكان وراء مضيق الضيق والحبس متسع الأمن والحرية.

يقول الله سبحانه في كتابه الكريم: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (سورة يوسف: ٥٦-٥٧).

تلك هي حقيقة آية المراودة، كيف همت به وهم بها؟ وهي تنص كما تبين عقيدتنا أنه كان مثالاً للنزاهة والشرف، أصيل في نسبه، رفيع الحسب عظيم السلالة، وأما ما قيل من بعض القصاص من تخاريف وأباطيل، فيرد عليهم أبو حيان في تفسيره «البحر المحيط»: «بأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضًا مع كونها قادحة في الفساق»، فما بالك بالمقطوع لهم بالعصمة والعفة، كما سرد القرآن قصته بكل أحداثها منذ أن كان طفلاً حتى قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (سورة يوسف: ١٠١).



طــه



▪ **يقول الحقُّ في محكم كتابه:**

﴿ طه (١) ما أنزلْنا عليك القُرآنَ لتشْقى (٢) إلاَّ تذْكرةً لِمَن يخْشَى (٣) تنزيلاً ممَّنْ خلَقَ الأَرْضَ والسَّمَوَاتِ العُلَى (٤) الرَّحْمَنُ على العَرْشِ اسْتَوى (٥) لَهُ مَا في السَّموَاتِ ومَا في الأَرْضِ ومَا بينَهُما ومَا تَحْتَ الثَّرى (٦) وإن تجْهرْ بالقَوْلِ فإنَّهُ يعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى (٧) اللَّهُ لا إلَهَ إلاَّ هُو لَهُ الأَسْماءُ الحُسْنَى ﴾ (سورة طه: ١-٨).

قال ابن جبير: بالنبطية طه يا رجل، وقال ذلك أيضًا عكرمة، والضحاك وكذا لأبي ذر والنسفي، وعن ابن عباس ﵄ في قوله: ﴿ طه ﴾: قال هو كقولك يا محمد بالحبشية.

والنبط هم أهل الفلاحة من الأعاجم، وكانت أماكنهم بسواد العراق والبطائح.

وكان رسول الله ﷺ إذا صلى القيام قام على رجل ورفع أخرى من شدة تعبه لطول قيامه، فأنزل سبحانه: ﴿ طه ﴾ أي طأ الأرض.

وقد جاء في الخبر أن الله قرأ: ﴿ طه ﴾ قبل أن يخلق آدم بألف عام، فلما سمعت الملائكة، قالوا: طوبى لأمة ينزل عليهم هذا، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لألسن تتكلم بهذا.

وجاء في تفسير ابن كثير: أنها كلمة بالنبطية ومعناها يا رجل، وأنها معربة، ولا يخفى ما في السورة من الإكرام للنبي ﷺ، وتكذيب الكفار عندما زعموا أن

القرآن كان سببًا في شقائه وتعبه، وأنه من أراد الله به خيراً أتاه العلم، كما ثبت في الصحيحين: **«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»**.

ويرى المفسرون أنها كقوله سبحانه: ﴿ **فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ** ﴾ (سورة المزمل: ٢٠)، فالله ما جعله شقاء، ولكن جعله رحمةً ونورًا وشفاءً ودليلاً إلى الجنة.

ثم تقرر الآيات أن هذا القرآن تنزيل من الله، خالق الأرض والسموات، استوى على العرش من غير تكييف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل، وأن الجميع تحت ملكه، وفي قبضته، وتحت تصرفه ومشيئته وإرادته وحكمه، وهو خالق كل ذلك ومالكه وإلهه، لا إله إلا سواه، ولا رب غيره سبحانه وتعالى.

ويقال أن ما تحت الثرى أرض ثم ماء وهكذا حتى الأرض السابعة، ثم الصخرة بيد ملك شاخص ببصره إلى عرش ربه ينظر النفخة الأولى، ثم هواء وظلمة، وبعدها ينتهي العلم ولا يعلم ما بعده إلا علام الغيوب، وما بين كل أرض والتي تليها خمسمائة عام، وما تحت الأرض السابعة حجارة جهنم.

وتبين الآيات أنه سبحانه يعلم السر وما أخفى، والسر ما أسره ابن آدم في نفسه، وما أخفى أي ما هو فاعله قبل أن يعلمه.

﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** ﴾ (سورة طه: ٨).

جاء في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ: **«إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من احصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر»**.

ويقال أنها مائة على عدد درجات الجنة، واستأثر الله بواحدة منها وهو الاسم الأعظم، ويقول أهل العلم: إنها تفتتح بلا إله إلا الله له الأسماء الحسنى، وأشهر الروايات ما جاء في سياق الترمذي، وعليها عول غالب من شرحها، وقد جاء في

بعض الروايات زيادة غيرها من القرآن والسنة والإجماع، والرأي أنه جاء التخصيص أنها تسعة وتسعون لكونها أكثر الأسماء تكرارًا في القرآن والسنة وأبينها معاني، والدليل على ذلك أن الكثير من الصحابة دعا بغيرها، ومن حديث عائشة ﵂ أنها دعت بحضرة النبي ﷺ بنحو ذلك ولم ينكر عليها.

وقد ذكر من الأسماء في سورة الحشر عدة، ومن معانيها:

«هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة»: أي أنه لا شبيه له في إلهيته وملكه وتدبيره، لا شريك له ولا رب سواه ولا خالق غيره، عالم السر والعلانية، المتصف بجميع أوصاف الكمال وأحدية الذات الإلهية المقدسة.

«هو الرحمن الرحيم»: ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلق في أرزاقهم وأسباب معايشهم ومصالحهم، فهو الرحمن خاص في التسمية وعام في الفعل، وأما الرحيم عام في التسمية وخاص في الفعل، أو بمعنى آخر «الرحمن» من الأسماء التي يختص بها ويجب الإقرار بها والخضوع عندها كالأحد والمتعال والقدير والمتكبر ونحوها، أما «الرحيم» فهو من الأسماء التي يستحب الاقتداء بها في معانيها كالكريم والعفو والحليم وغيرها.

«الملك»: صاحب الملك والملكوت والمشيئة، فليست للخلق مشيئة إلا أن يشاء الله، وهو الذي ينادي على عباده يوم القيام **«أنا الملك، أنا الديان»**، وهو القادر على الإيجاد، والملك المتصف بالأمر والنهي.

«القدوس»: الظاهر عما لا يليق، ولا تفوته إرادة، ولا يكلها إلى أحد خلقه.

«السلام المؤمن»: ذو السلامة من النقائص، والمصدق رسله بخلق المعجزة لهم، من سلم المؤمنون من عقوبته وأمنوا من عذابه.

«**العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون**»: القادر البليغ الاقتدار على كل شيء، وهو القوي الذي جبر خلقه على ما أراد، وهو المنزه عما لا يليق به، وله القهر والغلبة.

«**هو الله الخالق البارئ المصور**»: خالق كل شيء بمعنى أنه موجده من أصل ومن غير أصل، وبارئه بحسب ما اقتضته الحكمة من غير تفاوت ولا اختلال، ومصوره في صورة يترتب عليها خواصه ويتم بها كماله.

يقول الشيخ حافظ حكمي في (معارج القبول): «ونحن نشهد الله تعالى وحملة عرشه وجميع ملائكته وأنبيائه وجميع خلقه أن نثبت لربنا عزَّ وجلَّ ما أثبته لنفسه في كتابه وأثبته رسوله ﷺ، وأجمع عليه أهل السنة والجماعة، سلفًا وخلفًا، من أن ربنا فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه، وهو يعلم ما هم عليه، لا يخفى عليه منهم خافية، واستواؤه على عرشه كما أخبر، وعلى الوجه الذي عناه وأراده، كما يليق بجلال ربنا وعظمته، لا نتكلف لذلك تأويلاً، ولا تكييفًا، بل نقول: آمنا بالله، وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنا برسول الله، وبما جاء عن رسول الله، وعلى مراد رسول الله، ولا نطلب إمامًا غير الكتاب والسنة، ولا نتخطاها إلى غيرهم، ولا نتجاوز ما جاء فيهما، فننطق بما نطقت به، ونسكت عما سكت عنه، ونسير سيرهما حيث سارا، ونقف معهما حيث وقفا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً.

معرفة وإقرارًا وعملاً، وانقيادًا وطاعة.



كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ

■ يقول الحقُّ في محكم كتابه:

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ .

(سورة الأنبياء: ١٠٤-١٠٥)

جاء في (تفسير الجلالين): (السجل) اسم ملك كريم من الملائكة، والكتاب هو صحيفة ابن آدم بعد موته، وتبين الآية بأن الجنة يرثها كل عبد صالح أطاع الله ورسوله.

وجاء في (فتح الباري): (السجل) اسم ملك بلسان الحبشة، ويقال أنه ملك من السماء الثانية ترفع الحفظة إليه الأعمال كل خميس وإثنين، ولذلك كان ﷺ يحب صيامهما حتى يرفع عمله وهو صائم.

وقيل: (السجل) ملك موكل بالصحف فإذا مات الإنسان رفع كتابه إلى السجل، مطويًا إلى يوم القيامة حتى يأذن الله بفتحها وبسطها: ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ (سورة التكوير: ١١).

وجاء في (تفسير ابن كثير): هذا كان يوم القيامة ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (سورة الزمر: ٦٧). وعن ابن عمر

عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السموات بيمينه» (رواه البخاري).

وأما قوله: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ قيل: المراد الكتاب، وقيل: ملك من الملائكة، فإذا صعد بالاستغفار قال اكتبها نوراً. وقد جاء في تفسير ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾: يعني هذا كائن لا محالة يوم يعيد الخلائق خلقاً جديداً كما بدأهم وهو القادر على إعادتهم، وذلك واجب الوقوع لأنه من جملة وعد الله الذي لا يخلف ولا يبدل، وهو القادر على ذلك، ولهذا قال: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (تفسير ابن كثير ـ للآية ١٠٥).

وعن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة، فقال: «إنكم محشورون إلى الله ـ عز وجل ـ حفاة عراة غرلا»، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (مسند أحمد).

وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام، وعندما ينادي ﷺ: يا رب أصحابي، حين يرى رجالاً يدفع بهم ذات الشمال، فيقال له: لا تدري ما أحدثوا بعدك. فيتلوا الآية التي تلاها العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سورة المائدة: ١١٧).

وفي السنة المطهرة العديد من المشاهد لأهوال يوم القيامة:

تدنو الشمس من الخلائق، ويبلغ العرق آذانهم، وحتى يقول الكافر: يارب أرحني ولو في النار، وأما المؤمنون فهم على كراس من ذهب ويظللهم الغمام فلا يضرهم حرها حينئذ، وقد جاء في حديث الشفاعة أن الناس تأتي إلى محمد ﷺ فيستأذن ربه، ويلهمه بمحامد حميده بها ويخر ساجداً، فيقال له: «ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع» (ونصه في صحيح البخاري).

وأيضًا من مشاهد يوم القيامة أن المؤمنين يمرون على الصراط يتقدمهم نبيهم ﷺ كالبرق الخاطف، وأما الكفار والعصاة فيقعون في النار من غير حساب، وأما من وحَّدوا الله ولم يشركوا به شيئًا، ولكنهم خلطوا حسناتهم بالسيئات، فتوضع لهم الموازين، فمنهم من يتغمده الله برحمته ويدخله الجنة بشفاعته أو بشفاعة من يشاء سبحانه وتعالى، ومنهم من يدخل النار، ثم يخرج بقدر ذنوبه. وهذا ما لخصه الإمام إبراهيم البيجوري:

إن الناس على قسمين: مؤمن وكافر، فالكافر مخلد في النار إجماعًا، والمؤمن على قسمين، مطيع وعاص، فالمطيع في الجنة إجماعًا، والعاصي على قسمين: تائب وغير تائب، فالتائب في الجنة إجماعًا، والعاصي غير التائب في المشيئة وعلى تقدير عذابه لا يخلد في النار بفضل كلمة التوحيد ـ شرح الجوهرة ـ.

وهذا القسم الأخير يخرجون من النار وقد امتحشوا فيلقون في نهر يقال له نهر الحياة، فينبتون في حافيته كما تنبت الحبة في وسط الماء ويدخلون الجنة.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ليصبن أقوامًا سفع النار بذنوب أصابوها عقوبة، ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته، يقال لهم الجهنميون».

ولذلك كان السلف الصالح أشد خوفًا من هذا اليوم العصيب، وكانوا يرددون: لا ندري أين يبلغ بنا العرق؟ ولا ندري كيف ننجو من نفخة الصور وما فيها من شدة الصعقة وهول النفخة، وكيف سنمر من جواز الصراط الذي هو أحد من السيف وعليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم؟ ولذلك كانوا يدعون بدعاء النبي ﷺ: «اللَّهم حاسبني حسابًا يسيرًا»، وذلك الدعاء الذي سألت عنه السيدة عائشة رضي الله عنها، فقال: «أن ينظر في كتابه فيتجاوز عنه، إن من نوقش الحساب هلك»، وكان الصحابة أشد خوفًا من صغائر الذنوب، لمعرفتهم أنها إن كثرت صارت كبارًا مع الإصرار.

يقول الإمــام الغزالي: اعلم إن كل عرق لم يخــرجه التعب في ســبيل الله، من حج وجهاد وصيام وقيام وقضاء حــاجة مسلم وتحمل مشقة في أمر بمعروف ونهي عن المنكر، فسيخرجـه الحياء والخوف في صعيد يوم القيــامة الذي يطول فيه الكرب، ولو سلم ابن آدم من الجــهل والغرور لعلم أن تعب العــرق في تحمل مــصاعب الطــاعات أهون أمرًا وأقـصر زمانًا من عرق الـكرب والانتظار في يوم القيامــة، فإنه يوم عظيم شدته. (إحياء علوم الدين).

وقد بين القرآن والسنة أن مـحاسبة النفس برد المظالم لأصحــابها من أهم الأمور مع العمل الصالح، مما يجـعل هذا اليوم العصيب أهون على المؤمن كــالصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا.

يقول سبحانه: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ (سورة إبراهيم: ٤٢-٤٣).

ويوصي المصطفى ﷺ: «إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته، فإن كان رشداً فامضه، وإن كان غياً فانته عنه».

هذا وإلا كان كالمفلس والــذي وصفه النبي ﷺ: «المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطي من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار».

يقول سبــحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (سورة الحشر: ١٨-١٩).

هذا هو الخوف من مقـام الله، وهو ليس بالأمر اليسير، هذا المقـام الذي أخبرنا عنه الرسول ﷺ : «إن الله لا يجمع على عبد خوفين وامنين».

من خافه في الدنيا أمن عذابه في الآخرة، ومن أمنه في الدنيا روعه في الآخرة.

يقول سيدنا عيسى عليه السلام: «حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، ومرارة الدنيا حلاوة الآخرة».

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ (سورة الرحمن:٤٦).

مقـدمة ونتـيجة: المقـدمة هي الخـوف من مقام الله، والنتـيجـة هو الفوز برضوان الله.



مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ

■ يقول الحقُّ في محكم كتابه:

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (سورة النور: ٣٥).

روى الطبري عن طريق كعب الأحبار قال: المشكاة هي الكوة، وهي الطاقة بلسان الحبشة. وجاء في كلمات القرآن للشيخ حسنين من مخلوف: كنور كوة غير نافذة. وقيل المشكاة هي موضع الفتيلة من القنديل وهذا هو المشهور، والمصباح هو الزبالة التي تضئ، أما الكوكب الدري فهو كوكب مضئ مبين فخم يمتد نوره من زيت زيتون شجرة مباركة في وسط الشجر ليست بادية للمشرق والمغرب.

وسورة النور مدنية وآياتها أربع وستون، وسميت بهذا لما فيها من إشعاعات النور الرباني، وبتشريع الأحكام والآداب والفضائل الإنسانية التي هي قبس من نور الله على عباده، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول: علموا نساءكم سورة النور.

وقد بدأت بالدلالات الواضحة لما فيه عظة وعبرة للمؤمنين، وفيها براءة للسيدة عائشة أم المؤمنين ﵂، ووعد لها بالمغفرة والرزق الكريم في الجنة، وأن الوعيد الشديد والعقاب البليغ والزجر العنيف، والذي جاء أشد من وعيد عبدة الأصنام، ما هو إلا لإظهار علو منزلة محمد ﷺ، وتطهير آله وأزواجه وذريته.

ومن أجمل ما قيل: أن عائشة لما رميت بالفاحشة برأها الله في كتابه الكريم من القذف والبهتان، وما رضى أن يبرأها صبي في المهد كما كان مع يوسف، ولا بنبي كما كان مع مريم، وهذا لأجل حبيبه وصفوة خلقه ﷺ.

﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ عن ابن عباس: «هادي أهل السموات والأرض»، وعن مجاهد: يدبر الأمر فيهما بنجومهما وشمسهما وقمرهما، وعن أنس بن مالك: «إن الله يقول نوري هدي»، وعن أبي بن كعب: «هو المؤمن الذي جعل الله الإيمان والقرآن في صدره، فضرب الله مثله، فبدأ بنور نفسه ثم ذكر نور المؤمن، وكان يقرؤها «مثل نور من آمن به»».

وعن ابن إسحاق في السيرة: أن رسول الله ﷺ قال في دعائه يوم آذاه أهل الطائف: **«أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك، أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله»**.

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام الليل يقول: **«اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن»**.

وعن ابن مسعود قال: «إن ربكم ليس عنده ليل ونهار، نور العرش من نور وجهه»، وقيل: إن سبب نزول الآية سؤال اليهود عن كيفية تخليص نور الله من دون السماء.

ومن أجمل ما قيل في وصف المؤمن: أنه كالرجل الحي يمشي في قبور الأموات، لا تصيبه الفتن كما لا تصيب أشعة الشمس الشجرة المباركة، وهو بين أربع خصال:

صدق في القول، وعدل في الحكم، وصبر على البلاء، وشكر عند العطاء، ولأنه قد اجتمع في قلبه نور الإيمان ونور القرآن فهو يتقلب في الأنوار الربانية: كلامه نور وعمله نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره إلى نور يوم القيامة حيث نور الجنة الذي يتلألأ، ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: **«القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح. فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نور. وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق كمثل القرحة يمدها الدم والقيح، فأي المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه»** (مسند أحمد).

ثم لما ذكر الله تعالى هدايته لمن يشاء من عباده، ذكر مواطن هذه العبادة وهي المساجد أحب البقاع إلى الله فقال: «في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال»، وقال ابن عباس: المساجد بيوت الله في الأرض، تضئ لأهل السماء كما تضئ النجوم لأهل الأرض (التفسير الكبير).

والمتصفح لسيرة الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يتعجب أشد العجب متسائلاً: أي نور أضاء قلوبهم حتى أصبحت كمصابيح الهدى؟!

لقد رأوا النور يتجسد أمام أعينهم، نوراً يمشي على الأرض ويملأ الدنيا من مشارقها إلى مغاربها، رأوا النور يتألق صدقاً وأمانة وطهراً واستقامة وعفة، لقد كان هو النور الذي اتبعوه ﷺ.

أمير المؤمنين يحذر قـائد الجيش من خديعة العدو وبينها آلاف الأميال، فـيسمعه ويأخذ حذره، وصحـابيان يحضران لصلاة الفجر في يوم شديـد الظلمة فينبعث النور من بين أصبيعـيهما[1]، وهذا صحابي وصفه رسول الله ﷺ : «عبداً نور الله قلبه»، يقول الشيخ الشعراوي شارحًا للحديث الشريف: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»: هو بيان للرؤية الإيمانية في النفس المؤمنة، فالإنسان حينما يؤمن لابد أن يأخذ كل قضـاياه برؤية إيمانية، حتى إذا قـرأ آية عن الجنة فكأنه يرى الجنة وأهلها ينعمون، وإذا قـرأ آية عن النار اقشعر بدنه وكأنه يـرى أهلها وهم يعذبون، ذات يوم شاهد رسول الله ﷺ أحد صحابته وكان اسمه الحارث، فقال له: «**كيف أصبحت يا حارثة؟**»، فقال: أصبحت مؤمنًا حقًا، فقال: «**فانظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟**»، قال الحارث: عـزفت نفسي عن الدنيا، فأسـهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أرى عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون، وإلى أهل النار يتضاغون فيهـا، قال النبي ﷺ : «**يا حارث عرفت فالزم**» (رواه البيهقي في الزهد) (من خواطر الشعراوي ـ رحمه الله ـ).

ولهذا بنيت السنة المطهـرة أنه لو أنفق أحدنا ما يعادل جبـل أحد ذهبًا فلن يصل إلى مكانة الصـحابة لما كـانوا ينفقونه وهـم في أشد الحاجـة إليهم، يقـول سبـحانه وتعالى: ﴿ **وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ (سورة الحديد: ١٠).

---

(١) المحفوظ أنه كان من طرف سوطيهما عندما إرادا أن يتفرقا بعد إقفالهم من الصلاة.



ويتساءل البعض كيف نصل إلى تلك الدرجة الإيمانية؟ نهتدي بنور الله، ونعتصم بهداه نؤدي أركان الإسلام بحقها دون الإخلال بركن منها، ونتواجد في الأجواء الإيمانية ونبتعد عن الأوساط التي تعج بالمعاصي، ونتجه إلى القرآن الكريم متدبرين: وعده ووعيده وأمره ونهيه وجنته وناره، ومستشعرين حجاب الله سبحانه الذي لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، وأن تكون مهتمًا بأمور المسلمين فلا تكون بارد الإحساس وإخوانك ينكل بهم في بقاع الأرض.

إن فعلت ذلك كنت كما أخبر رسول الله ﷺ: **«إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم»** وأصبحت ممن وصفهم الحق في كتابه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ٩٠).



وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ

▪ يقول الحقُّ في محكم كتابه:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَٰذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (سورة الشعراء: ١٢٣ - ١٤٠).

وقد جاء في (كلمات القرآن) للشيخ حسنين محمد مخلوف أن «مصانع» هي حصونًا أو قصورًا أو حياضًا للماء، وقد جاء في فتح الباري «المصانع» هي القصور العالية بلغة أهل اليمن.

وقد ذكر القرآن قصة «عاد» في عدد من السور وهي: (الفجر)، (الأعراف)، (هود)، (المؤمنون)، (الشعراء)، (فصلت)، (الأحقاف)، (الذاريات)، (القمر)، (الحاقة).

وقد جرى ذكر اسمها في السور: (النجم)، (إبراهيم)، (الفرقان)، (العنكبوت)، (ص)، (ق).

وقد اهتم القدماء بأخبارهم، فقد ذكر ابن جرير: أنهم كانو يسكنون بالأحقاف ـ وهي جبال الرمل ـ وكانت باليمن بين عمان وحضرموت، بأرض مطلة على البحر يقال لها «الشحر» واسم واديهم «مغيث»، وكانوا يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام.

وذكر ابن كثير: أنهم أول الأمم الذين عبدوا الأصنام بعد الطوفان، وكانوا جفاة كافرين، عتاة متمردين، فأرسل الله رجلاً منهم يدعوهم إلى التوحيد وإفراده سبحانه وتعالى بالعبادة والإخلاص له، فكذبوه وخالفوه وتنقصوه، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

ويقول ابن إسحاق: هم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح وهؤلاء عاد الأولى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴾ (سورة الفجر: ٦-٨).

وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، وكما شدد خلقهم شدد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكذيبًا للحق، ولهذا دعاهم هود ـ عليه السلام ـ إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى طاعته وتقواه. ولقد ذكرت الآيات من سورة الشعراء ما بلغته تلك الأمة من القدر الكبير للحضارة، فهي بنت فوق الأماكن المرتفعة بناءً يرشد المارة ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾، وبَنَت آبار لحفظ الماء تحت الأرض ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾، وأمدهم بالبنين والبساتين والأنهار ومع هذا تكبروا وكذبوا فكانوا عبرة لمن يعتبر.

أما سورة (هود) والتي تحمل اسم بنيهم، فإنهم اتهموه بالجنون لغضب آلهتهم عليه، ولقد تحداهم أنها لن تصيبه بأذى لأنها لا تنفع ولا تضر ولا تنفع لأنها جماد لا يحس، وأنه لا يتوكل إلا عليه وحده لا شريك له: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم

مَا من دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (سورة هود: ٥٦)، وهذا كان دليلاً واضحًا على مدى جهلهم وضلالهم، لأنهم لم يصلوا إليه بسوء ولا نالوا منه مكروهًا كما ادعى قومه.

وقد ذكر الله صفة إهلاكهم في أماكن متفرقة من القرآن، فبينما هم قد قهروا أهل الأرض بفضل قوتهم التي أتاهم الله بالرزق الوفير والأموال الكثيرة والجنات والأنهار والأبناء والزروع والثمار، وكانوا يبنون الأماكن العالية لمجرد اللهو والشهرة وإظهار القوة والكبرياء، وأنهم لما أبوا إلا الكفر أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين، فخرجوا إلى بيته الحرام وكان معروفًا عند أهل ذلك الزمان وبه العماليق يقيمون عنده، وهم من سلالة عمليق والذي ينتهي نسبه إلى نوح عليه السلام، وانتهوا إلى رجل له نسب عندهم، فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر ويسمعون الأغاني، فلما طال مقامهم عنده واستحيا أن يأمرهم بالانصراف عمل شعرًا يعرض لهم بالانصراف، ولما سمعوه غناءً تنبهوا لذلك ونهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم، لا إلى الله سبحانه وتعالى ولكن لآلهتهم وأصنامهم، وعند ذلك خرجت ريح فيها شبه نار أمامها رجال يقودنها فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، فلم تدع من عاد أحدًا إلا هلك، واعتزل هود ـ عليه السلام ـ ومن معه من المؤمنين، يقال أنها كانت ريح صرصر عاتية، شديدة الهبوب، ذات برد شديد، فكانت سببًا لهلاكهم وكأنهم أعجاز نخل منقعر، وكانوا قد تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات، وحفرو لهم في الأرض إلى أنصافهم، فلم يغن ذلك من أمر الله شيئًا، وجاء وصف الريح العقيم التي ما تذر من شيء إلا أتت عليه في سورة (الحاقة): ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ (سورة الحاقة: ٦-٨).

ولذلك كان رسـول الله ﷺ كثـيراً ما يدعـو إذا عـصفت الريح، كـما تروي عائشة ﵂: **«اللَّهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به»** (صحيح مسلم).

وقـد أمر ارسـول ﷺ الصحابة بالإسـراع في السـير عنـد مرورهم بأمـاكن المعذبين، فعندما مر بأصحـاب الحجر وهم قوم ثمود، قال: **«لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين»**، ثم أنه قنع رأسه ﷺ وأسرع بالسير حتى أجاز الوادي ـ صحـيح البخاري ـ، ومن لطائف ما جاء في كتب التفاسير، ما قال ﷺ : **«نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور»** (صحيح البخاري).

وقد ورد الحديث الـشريف في صفة إهلاكهـم بالريح، كما ذكر ابن عـباس: ما فـتح الله على عـاد من الريح إلا مـوضع الخاتم، فـمـرت بأهل البـادية فحـملتـهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض، فرآهم الحاضرة فقالوا: هذا عارض ممطرنا، فألقتهم عليهم فهلكوا جميعًا.

وجـاء أيضًا مـا ذكره ﷺ تشبـيهًا لشدة عـذاب قـوم عـاد بأنـه يكاد يصيب قومًا خـرجوا عن الإسـلام: **«قوم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن ادركتهم لأقتلنهم قتل عاد»** (صحيح البخاري)، وهذا الجزء من الحديث الشريف والذي جاء في المغازي يعتبر من علامات النبـوة، فالمقصود قتل هؤلاء الخارجين عن الإسـلام القتل الشديد لأنهم موصوفون بالشدة وقسوة القلب تمامًا كقوم عاد.

ومن أجمل ما قـيل عندما رأى أبو الدرداء ﷺ ما أحدث المسلـمون في الغوطة من البنيـان ونصب الشجـر وإقبـالهم على الدنيـا ناسين الآخرة: «يا أهل دمـشق ألا تستحيون، تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون، إنه

قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون، ويبنون فيوثقون، ويأملون فيطيلون، فأصبح أملهم غرورًا، وأصبح جمعهم بورًا، وأصبحت مساكنهم قبورًا، ألا إن عادًا ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركابًا، فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين؟!».

ومن المعروف أنه بزغ في مكتبة الإسكندرية ما بين عامي ١٢٧م - ١٤٥م اسم عالم في الفلك والجغرافيا وكان يطلق عليه السكندري وله ثلاث عشرة كتابًا وقد ترجمها المسلمون الأوائل ـ وهذا ينفي ما أشاعه الغرب بهتانًا بأنهم أحرقوا مكتبة الإسكندرية ـ وفي ثنايا هذه الكتب إشارة لحضارة قديمة في شبه الجزيرة العربية، وفيها وصف دقيق كتبه أحد علماء الحضارة القدامى، من أنهم كانوا في نعمة من الله عظيمة ولكنهم بطروها ولم يشكروها، وأن تلك الحضارة لم يكن يدانيها في زمانها حضارة أخرى، وكأنها ترجمة للآية الكريمة: ﴿**الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ**﴾. وبينما كان علماء الغرب يعتبرون ما جاء في كتب السكندري قصصًا من وحي الخيال، إذا بالأقمار الصناعية تصور هذه الأماكن ولمسافات شاسعة في باطن الأرض بما فيها من أنهار وطرقات وقصور منهارة، تمامًا كما وصف القرآن الكريم، وليكون هذا دليلاً أنه خبر من السماء وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. يقول سبحانه: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ (سورة فصلت: ٥٣).

ومن الآية نتبين أن القرآن قد أحاط بكل حقائق الكون، سواء كان بأسلوب السرد المباشر صراحة أو بأسلوب الإشارات، وسواء تبينا ذلك في الماضي أم تبيناه لما كشفه العلم الحديث لنا اليوم أو ما سيكشفه بعد ذلك إلى يوم القيامة، وهذا كله لدليل واضح على أنه الحق المنزل من الله القائل سبحانه: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ (سورة الأنعام: ٣٨).

وقد تجلى الإعجاز القرآني في ذكر تلك الحقائق في أساليب بالغة الجمال، وهدفها ككل ما توضحه أنواع المعرفة: التبين والتفكير والاعتبار والتذكير والهداية والوعظ والتحذير والزجر والتخويف والتبكيت والتشبيه والتقريب، ودائمًا ما تختتم بما فيه توجيه السمع والبصر والعقل، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الأنعام: ٥٠) أي: لا يستوي الضال الشبيه بالأعمى بالبصير في استجلاء الأمور.

أو قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (سورة البقرة: ٢٦٩) أي يتعظ أصحاب العقول، أو قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ (سورة آل عمران: ١٣) أي لذوي البصائر ،أو قوله سبحانه: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (سورة محمد: ٢٤) أي أنهم لو تدبروا القرآن لعرفوا أنه الحق، ولكن عدم فهمهم له يرجع لأن قلوبهم مغلقة، ونحوها من الآيات الكريمة الكثير لبيان أن من لم يؤمن به، فإنه من هؤلاء القوم: صم عن الحق لا يسمعونه سماع قبول، وخرس عن الخير فلا يقولونه، وعمي عن طريق الهداية فلا يرونه.



سَيْلَ العَرِمِ

* **يقول الحقُّ في محكم كتابه:**

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (١٧) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ (سورة سبأ: ١٥-٢١).

﴿ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾: هو ما يمسك الماء من بناء وغيره إلى وقت حاجته، ويقال: أنه أول السدود في العالم.

وقد جاء في فتح الباري: وقال عمر بن شرحبيل: العرم المسناة بلحن اليمن، وقال غيره: العرم الوادي، واللحن اللغة، وقال الفراء: العرم المسناة كانت تحبس الماء على ثلاثة أبواب منها، فيسيبون من ذلك الماء من الباب الأول ثم الثاني ثم الآخر، ولا ينفذ حتى يرجع الماء السنة المقبلة.

وسبأ قبيلة كانت تعيش في مأرب اليمن، وتسمى على اسم جدلهم من العرب، والإعجاز القرآن في أنه أورد لفظًا في الآيات من لحن اليمن قديمًا.

وكان لسبأ جنتان في بلدة طيبة إذا مكث فيها المريض أيامًا تماثل للشفاء لطيب هوائها وعذوبة مائها وحلاوة ثمارها، ولكنهم كفروا بنعمة الله، وبطروا ولم يشكروا، وتكبروا على خلقه، وأعرضوا عن تصديق الرسل وكفروا بما أنزل الله، فأغرقهم الله وتهدمت بيوتهم، وتمزقوا كل ممزق، وبدلهم بثمر خبيث حامض مر، وأصبحوا أخبارًا تتناقلها الأجيال لما فيها من العبرة والعظة لمن ينساق وراء وسوسة الشيطان وإغوائه، وحتى صار تفرقهم مثلاً عند العرب، يقولون: «تفرقوا كما تفرقت سبأ»، وقيل: أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين، وتجتمع إليه أيضًا سيول أمطارهم وأوديتهم، فعمد ملوكهم الأقدمين فبنوا بينهما سدًا عظيمًا محكمًا، وغرسوا الأشجار المثمرة، حتى أن المرأة كانت تمشي تحتها بالوعاء، فتتساقط الثمار فتملؤه لكثرته ونضجه واستوائه، ولم يكن في مأرب وقتها شيء من الحشرات لعناية الله بهم ليوحدوه ويعبدوه، ولكنهم أعرضوا عن توحيده وعبادته وشكره، واتجهوا إلى الشمس ساجدين من دون الله، فكان العقاب لهم بأن أرسل دابة من الأرض يقال لها الجرز فنقبت السد حتى إنهار عليهم، ونضب الماء ويبست الأشجار، وتبدلت الأشجار المثمرة بالفاكهة الحلوة إلى أشجار ذات الأشواك والثمار المرة الطعم، وهذا بسبب شركهم وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل.

ولذلك كان رسول الله ﷺ كثيرًا ما يستعيذ من فتنة الغنى، ومن فتنة الفقر كما جاء في باب الدعوات في صحيح البخاري، وكذلك بنيت السنة المطهرة في أكثر من موضع، أنه من اتبع إبليس والهوى وخالف الرشاد والهدى، يعده ويمنيه ويخدعه، فضلوا ولم يسلموا، كما سلم المؤمنون ممن اتبعوا الرسل، وحمدوا الله، وشكروه على نعمه.

وعن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمده عليها».

ومن الثابت في السنة أنه يوم القيام ينادي: أين الذين كانوا يحمدون الله تعالى في السراء والضراء؟ فيقومون وهم قليل، مثلهم كمثل الذين يقومون الليل، والذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، فيدخلون الجنة من غير حساب، ثم يحاسب سائر الناس.

وكان ﷺ يكثر في دعائه سائلا: قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا.

وكان السلف الصالح إذا كثرت النعم شكروا الله، وإذا كثر البلاء استغفروا الله.

وكان من عبادة الأنبياء الحمد والشكر: آدم أول ما عطس حمد الله، ونوح لما استوى على السفينة حمد الله، وإبراهيم لما رزقه الله إسماعيل وإسحاق قال الحمد لله، وداود وسليمان حمدا الله على تفضيله لهما، وأهل الجنة يحمدون الله على أنهم من أهلها، وأمة محمد ﷺ تسمى (الحمادون) يوم القيامة لأنهم حمدوا الله سبحانه بتفضيلهم على جميع الأمم السابقة: بأفضل الأديان، وأفضل الرسل، وأفضل الكتب، حمدوه سبحانه باللسان وبالقلب وبأداء أركان دينه بإخلاص لوجهه الكريم سبحانه وتعالى.

وكان من هديه ﷺ وأصحابه من بعده سجود الشكر عند تجدد نعمة تسر أو ابتعاد نقمة، كما جاء في «المسند» أن النبي ﷺ كان إذا يسر الله له أمرًا، سجد شاكرًا لله تعالى. وقد سجد شكرًا لله عندما أخبره جبريل عليه السلام بأنه من صلى عليه واحدة صلى الله عليه عشرًا، ومن سلم عليه واحدة سلم الله عليه عشرًا، كذلك سجد عندما أعطاه الله الشفاعة لأمته، وعند تحويل القبلة إلى البيت الحرام.

وقد سار الصحابة على نفس النهج فقد سجد أبو بكر عندما علم بمقتل مسيلمة الكذاب، وسجد عمر بن الخطاب عند فتح بيت المقدس. نعم الله لا تعد ولا تحصى وأولها نعمة الإسلام، وقد ذكر القرآن عدة منها في سورة (إبراهيم) و(لقمان) و(يس) ونحوها، لبيان أن شكر الله على نعمائه وفضله ورحمته من صفات التأدب مع من أنعم وأحسن وتفضل سبحانه وتعالى.

وفي سورة (إبراهيم) بيان لنعمه المتعددة: الشمس والقمر والسموات والأرض والليل والنهار والفلك، وتختتم بأن الكافر لكثير الظلم لنفسه بالمعصي؛ والكفر لنعمة ربه.

وفي سورة (لقمان) سؤال إنكار لأهل مكة ولأهل الكفر والشرك: ماذا خلقت آلهتكم حتى تشركوا بالله؟! وجاءت وصية لقمان والتي تحمل السورة اسمه بأمور ثلاثة بسببها يكون تقويض أي مجتمع يبتعد عن منهج الله: الكبرياء، والإعراض عن ما أمر به الله، والشرك بنوعيه[1].

والملاحظ واللافت للنظر أن تلك الأمور الثلاثة هي التي كانت سببًا لعقاب سبأ وتقويض ملكهم.

أما سورة (يس) فهي من أكثر السور ذكرًا لنعم الله والتي تعد دلالة واضحة على طلاقة القدرة الإلهية: حياة الأرض بإنزال الأمطار عليها وإخراجها للحب والبساتين والنخيل والأعناب والعيون، وبيان أن كل الكائنات مخلوق في زوجية واضحة ليبقى الله متفردًا بالوحدانية، وتبادل الليل والنهار وما فيه من دليل على كروية الأرض،

---

(١) **الشرك الأكبر**: وهو أن يجعل العبد لله ندًا وهو خالقه سبحانه وبه يخرج العبد من ملة الإسلام.
الشرك الأصغر: كالرياء والنفاق ونحوهما وهذا النوع لا يكفر به صاحبه ولا يخرج من الملة ولكن يأثم به.

وجريان الشمس إلى مستقر لها ودوران القمر في منازل محـدودة ومتدرجة، والفلك المشحون الذي حـمل نوحًا ومن آمن معه ثم خلق وسائل أخـرى لا يعلمها إلا الله، والأنعام المسخرة للإنسان بمنافـعها العديدة ومشاربها المتنوعة، وجـعل الشجر الأخضر المصدر الرئيسي للتزود بقدر من طاقة الشمس وما في ذلك من عملية تعد أهم عملية لضرورة استمـرار الحياة على سطح الأرض ويذكر العالم الدكتـور النجار في خواطره أن الآية «٨٠» التي ذكرت تلك العملية الهامة (البناء الضوئى) هي من الإعجاز القرآني.

وقد ذكر الله سبحانه نعمة واحدة في سورة «القصص» لما فيها من إعجاز إلهي لا يتغيـر إلى يوم القيامة، ولا يـستطيع كائن ما كـان آن يبدل فيه ولو لدقـائق معدودة، تلك هي نعمة الليل والنهار، يقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (سورة القصص: ٧١-٧٢).

وفي الآية الأولى: ﴿أفلا تسمعون﴾ سماع تفـهم مع سكونتت الليل وهدوئه، فتـجعون عن الشرك والمعـصية، وفي الآية الثـانية ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ما أنتم عليه من الخطأ في الإشراك بالله ومبارزته بالمعاصي، وهذا واضح وضوح النهار بضيائه[1].

---

(١) وفي مختصر ابن كثيـر ـ رحمه الله ـ الموسوم بعمدة التفاسير للعلامة أحمد بن مـحمد شاكر ـ رحمه الله ـ في تفسـير سورة القصص الآيات (٧١، ٧٢، ٧٣) مـا نصه: «يقول تعالى ممتنًا على عـباده بما سخر لـهم من الليل والنهار، الذين لا قوام لهم بدونهـما، وبين أنه لو جعل الليل دائمًا سـرمدًا إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم ولسئمتـه نفوسهم وانحصرت منه ولهذا قال تعالى: ﴿من إلهٌ غير الله يأتيكم بضياء﴾ أي تبصرون به وتستـأنسون بسببه ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ثم أخبر سبحـانه أنه لو جعل النهار سرمدًا دائمًا إلى يوم القيامة لأضربهم ولتعبت الأبدان وكلت من كثرة الحركات والأشغال ولهذا قال سبحانه: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ﴾ أي: تستـريحون من حركاتاهم وأشـغالكم. اهـ. فسبـحان من: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ (سورة الفرقان: ٤٧).

أَتَـدْعُـونَ بَعْـلاً

■ يقول الحقُّ في محكم كتابه:

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٢٩) سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الصافات: ١٢٣-١٣٢).

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً ﴾: أبصر ابن عباس ﷺ رجـلاً يسوق بقرة وهو يقول: من بعل هذه؟ فدعاه قـائلاً: من أين أنت؟ فقال: من أهل اليمن، فـقال: هي لغة ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً ﴾ أي صاحبًا، وتلك هي لغة اليمن قديمًا.

﴿ سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴾: هي إليـاس وقيل هو ومن آمن مـعه وعلى قـراءة ﴿ إِلْ يَاسِينَ ﴾ بالمد أي أهله والمراد به أيضًا إلياس، وإلياس بهمزة القطع اسم عبراني، وعن ابن عباس أن الله يذكره بخير هو ومن معه.

وقد ذكر وهب بن منبه في «المبتدأ» أن إلياس عمِّر كما عمّر الخضر وأنه يبقى إلى آخر الدنيـا في قصـة طويلة، وأنه جعل له ريشًـا وألبســه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب، وصار ملكًا بشريًا سماويًا أرضيًا، وهذا صحته بعيدة.

أما مـا جاء في كتب السـيرة الصحـيحة فـإن إلياس ﷺ وهو ابن أخي موسى وهارون ـ عليهمـا السلام ـ وقيل غير ذلك، وأرسله الله إلى بعلبك ونواحـيها وكانوا

قد تركوا عبادة الله وانهمكوا في عبادة صنم لهم يسمى «بعلا»، فكذبوه فكانوا في النار إلا المؤمنين فإنهم نجوا منها، وقد أثنى الله عليه وعلى آله.

وقد انتهت سورة الصافات بما فيه تسلية له ﷺ بأنه ـ سبحانه وتعالى ـ له الغلبة، وسلامه على المبلغين من رسله لشرائعه، ونصرته لأنبيائه وهلاكه لمن كفر وأشرك، ومنهم من جاء ذكرهم السورة حين يقال للملائكة احشروا من ظلموا أنفسهم بالشرك وعبادة الأوثان ودلوهم إلى طريق جهنم ومعهم قرناءهم من الشياطين.

وقد جاء في تفسير ابن كثير: أن الله بعثه في بني إسرائيل بعد حزقيل ـ عليه السلام ـ، وكانوا قد عبدوا صنمًا يقال له «بعلاً» فدعاهم إلى عبادة الله ونهاهم عن عبادة ما سواه، وكان قد آمن به ملكهم ثم ارتد، واستمروا على ضلالتهم ولم يؤمن به منهم إلا القليل، فدعا عليهم فحبس عنهم القط ثلاث سنين، ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم ووعدوه بالإيمان به إن هم أصابهم المطر، فدعا الله تعالى لهم فجاءهم الغيث، فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر، فسأل الله أن يقبضه إليه. (من تفسير ابن كثير لسورة الصافات).

أما الرأي الصحيح والذي لا يتعارض مع السنة المطهرة: إنه لما كذبه قومه وخالفوه وأرادوا قتله هرب منهم وأختفى عنهم، ثم كان العذاب لقومه في الدنيا والآخرة إلا من آمن منهم، وأن الله أبقى بعده ذكرًا حسنًا لنبيهم فلا يذكر إلا بخير، ولهذا قال: ﴿سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾، كما قال سبحانه في نفس السورة: ﴿سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الصافات:٧٩)، ﴿سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (سورة الصافات:١٠٩)، ﴿سَلامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ (سورة الصافات: ١٢٠)، ثم على جميع الأنبياء والمرسلين: ﴿وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة الصافات: ١٨١).

وإذا كان الكفر متمثلاً في عبادة الأصنام ليس له أثر الآن، وأن الشيطان تملكه اليأس من هذا الأمر إلى يوم القيامة، فقد حطمها رسول الله ﷺ في العاشر من رمضان ٨هـ، وكان عددها ثلاثمائة وستون صنمًا، كما أخبر القرآن: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (سورة سبأ:٤٩)، والحق هو التوحيد والباطل هو الشرك متمثلاً في عبادة الأصنام التي لم يبق لها أثر، وذلك بعد أن تهاوت على وجوهها، ودعا الرسول لله الناس إلى التوحيد واتباع ملة إبراهيم، فأكمل الله به الدين وأتم به النعمة على العالمين. إلا أن الشيطان اللعين وجد ضالته فيما هو أشد خطرًا من الأوثان والأحجار، فمن أعظم مكايده التي كاد بها لأكثر الناس، وما نجا منها إلا من لم يرد الله فتنته: ما أوحاه قديمًا وحديثًا إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور، حتى آل الأمر فيها إلى أن عبد أربابها من دون الله وعبدت قبورهم واتخذت أوثانًا، وكان أول هذا الداء في قوم نوح ـ عليه السلام ـ، وقد دعا الرسول ﷺ: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد**» (رواه مالك وأحمد)، وقد استجاب الله لدعائه:

فاستجاب رب العالمين دعاءه ■■■ ؛أحاطه بثلاثة الجدران

وقد سدد النبي ﷺ الطرق التي تنتهي إلى الشرك، فقال: «**إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو**» (رواه أحمد والترمذي وابن ماجه).

ولو أننا تتبعنا البدع التي جاءت في تحقيق صُحافي لإحدى المجلات الدينية لوجدنا ما لا يخطر على البال أو يدور في الخيال، وهذا هو الغلو الذي حذرنا منه الرسول ﷺ، إنه أقرب إلى عبادة الأوثان، بل ويزيد عليها التجاوزات التي تحدث من الاختلاط والجهل والشرك وشد الرحال وإماتة السنة وإحياء البدعة، وأيضًا الدعاء والاستغاثة والذبح والنذور وكلها أمور ليست من العقيدة الصحيحة، والتي هي أول شرط الانتماء لهذا الدين الحنيف، فزيارة القبور جعلت للتذكرة بالآخرة، والدعاء

جعل للميت الذي انقطع عمله وهو يحتاج للدعاء والاستغفار له، وقد شرعت السنة دعاء مخصوص للميت دون سواه، وليس في ذلك غض لأصحاب القبور من الأولياء والصالحين ولا تنقيض لهم ذلك من إكرامهم ودليل على حب المؤمنين لهم.

بماذا تسمى من أشرك الخالق مع المخلوق في العبادة دون قصد إما بجهل أو بدعة أو ضلالة؟

وماذا تسمى الطواف حول القبور والتمسح بها وتقبيلها والتبرك بها؟

وماذا تسمى تقديم الذبح للأولياء والصالحين فضلاً عن الطواغيت والدجالين الذين يضلون الناس بغير علم؟

وماذا تسمى الدعاء لأصحابها بغرض الاستعانة بهم وطلب الشفاء منهم؟!!

إن لم يكن هذا هو الشرك بعينه، فأي شيء يكون؟!!

إنه أظلم الظلم، لأن التوحيد أعدل العدل، وذلك لأن من أشرك فقد وضع العبادة في غير موضعها وصرفها لغير مستحقها، وهذا هو الظلم العظيم ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ (سورة لقمان: ١٣).

ويوم القيامة يتبرءون منهم ومن عبادتهم إياهم، وحتى ولو سمعوهم فرضًا في الدنيا ما استجابوا لهم، والذي يخبرنا بهذا عالم كل شيء وهو الله تعالى إذ يقول: ﴿**إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾ (سورة فاطر: ١٤).

والله سبحانه وتعالى أخبرنا أن الصالحين والرسل والملائكة عباد أمثالنا يرجون رحمته ويخافون عذابه، وأن الأقرب فالأقرب يتوسلون إليه بالعمل الصالح، فلا

يصلح أن يعبدوا مع الله بدعاء أو نداء أو ذبح أو نذر أو عكوف على قبورهم إلى غير ذلك مما يعمله كثير من الجهال.

يقول جلَّ وعلا: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ٢٦-٢٩).

وإذا كان الدعاء في اللغة هو النداء، وفي الشرع هو الابتهال إلى الله بالسؤال والرغبة فيما عنده من الخير والتضرع إليه لتحقيق المطلوب ونيل المأمول، من هذا كان من الواجب على المسلم أن يطلب ويتضرع وأن يسأل ولا يسأل إلا الله، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (سورة البقرة:١٨٦)، واللافت للنظر أنه في آية الدعاء لم يجعل الله بينه وبين العباد أي واسطة في الدعاء.

ومن الوصايا الجامعة لرسول الله ﷺ ما قاله للصحابة: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك،رفعت الأقلام وجفت الصحف» (رواه الترمذي)، وقد بينت السنة المطهرة أن التوسل لا يكون إلا بثلاث أنواع ولا شيء غيرها:

- توسل الحي بالحي الصالح إلى الله، ويمكن أن يكون بالأدنى فقد صح أن النبي ﷺ قال لعمر: «لا تنسنا يا أخي من دعائك»، وقد طلب أيضًا من أمته الدعاء له بالوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود.

- التوسل بالعمل الصالح إلى الله كما حدث لأصحاب الغار الثلاث.

▪ التوسل إلى الله بذاته تعالى وبأسمائه وصفاته ونحوها.

ورسول الله ﷺ وهو أفضل الخلق أجمعين بالكتاب والسنة وبإجماع الأمة، ومع هذا بينت السنة المطهرة أن زيارة المسجد النبوي للصلاة فيه، مستحبة ومرغب فيها، فالقصد من الزيارة وشد الرحال إلى المدينة هو المسجد النبوي، أما القبر الشريف: فلا يجوز قصده بسفر، ولا شد الرحال إليه، لأن الرسول ﷺ قد نهانا أن نتخذ قبره عيدًا نعتاد زيارته في أوقات معينة، وقال ﷺ: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**».

والذي لاشك فيه أن كل مسلم يتوق شوقًا وحبًا لزيارة المسجد النبوي، والسلام على رسول الله ﷺ إذ هو صاحب البيت، ومن المعلوم أن ترك السلام على صاحب البيت مخالف لشعائر الإسلام.

وأخرج أبو داود والبيهقي عن أبي هريرة أنه قال عن رسول الله ﷺ: «**ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام**».

ومن السنة استقبال القبر الشريف، مستدبرًا القبلة، متباعدًا نحو أربعة أذرع، متجنبًا كل عمل فيه شبهة الشرك، مع لزوم الأدب وخشوع الجوارح، قائلاً: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، السلام عليك يا خير الخلق، يا إمام المتقين، يا سيد المرسلين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، أشهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، فجزاك الله عنا خير الجزاء.

اللَّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ولَوْ أَنَّهُمْ إذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوك فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ واسْتَغْفَر لَهُمُ الرَّسُولُ لَوجدُو اللَّهَ توَّابًا رَحِيمًا ﴾ (سورة النساء: ٦٤)[١] .

اللَّهم استغفرك من ذنوبي، اللهم اجعل رسول الله ﷺ شافعًا لي يوم القيامة، وآته يا رب العالمين الوسيلة والفضيلة، اللهم إني أسألك بفضلك العظيم أن توجب لي المغفرة ولوالديّ وللمسلمين كما أوجبتهما لمن أتاه ﷺ في حياته.

ثم كما بينت السنة السلام على خليفة رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، مع الإكثار من الصلاة في الروضة، وكلما مر بالقبر وقف وسلم وصلى عليه صلاة وتسليمًا: ﴿ إنَّ اللَّهَ ومَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (سورة الأحزاب: ٥٦).

وإذا لم نطب في طيبه عند طيب به طابت الدنيا فأين نطيب؟

---

(١) وفي تفسير المختصر لابن كثير ـ رحمه الله ـ المسمى بعمدة التفاسير للشيخ/ أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ في تفسير سورة النساء الآية ٦٤ ما نصه:

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ يرشد الله تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده، ويسألوه أن يستغفر لهم، فإنهم إن فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم ولهذا قال: ﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ اهـ. (من عمدة التفاسير المجلد الأول/ ٥٣٢-٥٣٣).

ـ والظاهر في هذا الاستغفار أنه كان مختصًا به عليه الصلاة والسلام حال حياته وأما بعد موته فلا، ومن أراد الزيادة فليراجع تفسير العلامة/ ابن ناصر السعدي ـ رحمه الله ـ في تفسير سورة النساء.

ـ وأما القصة في تفسير ابن كثير (المجلد الأول ـ تفسير النساء ـ ص٥٧٠) عن الأعرابي الذي استغفر عند قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام فهي غير صحيحة والله أعلم.

ـ هذا وقد ذهب الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ إلى أن المقصود في الآية هم المنافقين والذي ذكرتهم الآيات سالفة الذكر. (المجلد الرابع ـ تفسير سورة النساء ـ ص١٠٠).

وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ

■ يقول الحقُّ في محكم كتابه:

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥) هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَىٰ (٥٦) أَزِفَتِ الآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ (سورة النجم: ٥٥-٦٢).

﴿ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾ : قال عكرمة: سامدون يتغنون بالحميرية، وكانوا يقولون اسمد لنا أي غن لنا.

يوجه الله ـ سبحانه وتعالى ـ الخطاب للناس كافة موجهًا أنظارهم لنعمه الدالة على وحدانيته، ومبينًا أن محمدًا ﷺ ما هو إلا نذير كالرسل الذين من قبله، ولأنه نبي آخر الزمان فقد اقتربت الساعة والتي لا يعرف موعدها إلا الله، ثم يوجه القرآن لهم الزجر لتعجبهم حين سماعه تكذيبًا واستهزاء وعدم سماع وعده ووعيده لأنهم غافلون، والأولى أن يسجدوا لله الذي خلقهم بدلاً من سجودهم للأصنام التي صنعوها بأيديهم.

ومن المتفق عليه أن سورة «النجم» هي أول سورة قرأها رسول الله ﷺ على الناس، وأن مشركًا سجد وهو لا يقصد بها وجه العبادة، فختم الله به بالحسنى وأسلم لبركة السجود.

﴿ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾: أفـمن هذا القرآن تضـحكون ولاتبكون كـما يفـعل الموقنون به كـمـا أخبـر عنهم: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (سورة الإسراء: ١٠٩).

يقول ابن القيم: «لما كسفت الشمس خـرج ﷺ إلى المسجد فزعًا يجر رداءه، وكان كسوفها في أول النهار على مقـدار رمحين أو ثلاثة من طلوعها، فتقدم، فصلى ركعتين» (زاد المعاد).

ومن المعلوم أنه في كل ركعة ركوعـان وسجودان، ورأى ﷺ في صلاته الجنة والنار، وهم أن يأخذ عنقودًا من الجنة، فـيريهم إياه، ورأى أهل النار يعذبون، ورأى امرأة تخدشها هرة ربطتها حتى ماتت جوعًا وعطشًا، وقد وصف النار بقوله ﷺ: **«لم ار منظراً كاليوم قط افظع»**.

ويقول ﷺ: **«لقد رايت في مقامي هذا كل شيء وعدتم به، حتى لقد رايتني اريد ان آخذ قطفًا من الجنة حين رايتموني اتقدم، ولقد رايت جهنم يحطم بعضها بعضًا حين رايتموني تاخرت»**.

ولما صلى النبي عليه أفـضل الصلوات والتسليم، حمـد الله وأثنى عليه وقال: **«أيها الناس أنشدكم بالله هل تعلمون اني قصرت في شيء من تبليغ رسالات ربي لما اخبرتموني بذلك؟»، فقالوا: نشهد أنك قد بلغت الرسالة، ونصحت الأمة، وقضيت الذي عليك.**

ثم خطب ﷺ قائلاً: **«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت احد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا»، ثم قال: «يا أمة محمد، والله ما من احد أغير من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته، يا امة محمد، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»**.

والملاحظ أن النداء «يا أمة محمد» فيه من الشفقة عليهم والخوف من مؤاخذة الخالق سبحانه وتعالى لهم، ولما كان رفع البلاء بالذكر والدعاء والصلاة والصدقة فإنه يكون أكثر بالبعد عن المعاصي التي هي من أهم أسباب البلاء.

وقيل: أنه قد حيل بين النبي ﷺ أن يأخذ من قطاف الجنة، حتى يكون إيمان الناس بالغيب لا بالشهادة، لأنه عندما يكون بالشهادة عندما يرى الناس الشمس تشرق من المغرب فلا تنفع التوبة بعدها.

ويقول الإمام أبو الليث السمرقندي: قال عيسى ابن مريم ـ عليهما السلام ـ للحواريين: «**يا ملح الأرض لا تفسدوا، فإن الأشياء إذا فسدت إنما تداوى بالملح، وإن الملح إذا فسد لم يداو بشيء، يا معشر الحواريين لا تأخذوا ممن تعملون أجرًا إلا كما أعطيتموني، واعلموا أن فيكم خلصتين من الجهل: الضحك من غير عجب، والتصبح من غير سهر**».

ومعنى «**الضحك من غير عجب**» أي الضحك والقهقهة وهو من عمل السفهاء، ومن ضحك القهقهة في الدنيا ولو قليلاً بكى في الآخرة كثيرًا، فما بالك بمن ضحك القهقهة في الدنيا وهو عاصي لربه؟! إنه سيدخل النار وهو يبكي، ولذلك عير الله سبحانه أقواما بالضحك كما في سورة «النجم»، ومدح آخرين بالبكاء كما في سورة «الإسراء». (تنبيه الغافلين).

وكان ﷺ دائمًا يوصي أصحابه بعدم كثرة الضحك لأنه يميت القلب، وإذا مات القلب زادت قسوته وانغمس في شهواته وملذاته.

وقد جاء في الحديث الشريف: «**ويل لمن يكذب ليضحك به الناس، ويل له ويل له ويل له**»، وهذا الحديث يحتاج إلى التأمل العميق!! ولكن لا بأس من المزاح الجميل الذي فيه ترويح عن النفس، فقد كان ﷺ يمزح أحيانًا ولا يقول إلا الحق، وقصة العجوز التي طلبت الدعاء بدخول الجنة معروفة.

وقد بكى الصحابي أبو ذر الغفاري حينما سمع رسول الله ﷺ يقول: «لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرشات، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى».

وقال أبو ذر رضي الله عنه: «والله لوددت أني شجرة تعضد».

ويقول الحسن البصري: من علم أن الموت مورده، والقيامة موعده، والوقوف بين يدي الله تعالى مشهده، فحقه أن يطول في الدنيا حزنه.

﴿ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾: وأنتم لاهون غافلون عما يطلب منكم.

أجمع العلماء على أن الغناء المحرم ما كان يثير الشهوة، فما بالك إذا كان فيه عرى فاضح ورقص مبتذل وإيحاءات جنسية مكشوفة وكلمات مبتذلة؟!

ومن أسمائه: لهو الحديث الزور، واللغو الباطل، والمكاء والتصدية، ومنبت النفاق، ومزمار الشيطان، والصوت الأحمق الفاجر، والسمود.

ومعنى السمود: الغفلة والسهو عن الشيء.

وأدلة العلماء من الكتاب الكريم: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (سورة لقمان:٦)، وأيضًا الحديث الشريف الذي رواه الترمذي فيما معناه أنه إذا ظهر في الأمة أشياء حل بهم البلاء وذكر منها (الغناء المحرم).

وأن الله لما قال: ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ (سورة الإسراء:٦٤)، يقول المفسرون: صوت الشيطان منه الغناء.

ولقد أخبر النبي ﷺ بأن قومًا من أمته سيبيتون على لهو ولعب ومعازف، وأن الله تعالى سيخسف بهم ويسقط عليهم جبلاً يكونون تحته، وهذا الوعيد الشديد يدل على تحريم الأغاني بما فيها من لهو وخاصة إذا كان بصوت امرأة.

واللافت للنظر أن الكثيــر من الأغاني المنتشرة والتي تتسلــل إلى العقول، وتلهج بها الألسنة هي بشهــادة النقاد المنصفين تنقسم إلى: الفن التافه بكلــمات لا معنى لها والبعيدة عن الدين، والمملوءة بالانحــلال والدعوة إلى الفاحشة والمعصية، والعيش من أجل المحبوب أو المحبوبة وكأن هذا هو غرضه في الدنيا.

﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ (سورة النجم: ٦٢).

كان ﷺ إذا مر بســجدة، كبر وسجد، وربما قــال في سجوده: **«سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره بحوله وقوته»**، وربما قال: **«اللَّهم احطط عني بها وزرًا، واكتب لي بها أجرًا، واجعلها لي عندك ذكرًا وزخرًا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود»** (ذكرهما أهل السنن).

وقد كرم الله خير الأمم بأن جعل تحيتها مشتقة من اسمه «السلام» وليس الانحناء كما في بعض الأمم السابقة، وجعل سجودها وضع جبهته على الأرض، وهذا منتهى العبودية والأقرب ما يكون من الله جلا وعلا، حينما يقول المؤمن بعد أن يضع ركبتيه ثم يديه ثم جبـتهتــه وأنفه: سبــحان ربي الأعلى ثلاثًا أو سبــوح قدوس رب الملائكة والروح أو سجد لك سوادي وآمن بك فؤادي.



فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ

■ **يقول الحقُّ في محكم كتابه:**

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ (سورة المدثر: ٣٨-٥١).

﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ : أخرج الفراء عن طريق عكرمة أنه قيل له: القسورة بالحبشية الأسد.

وجاء في تفسير سورة المدثر: أن كل نفس مرهونة مأخوذة بعملها في النار، إلا أصحاب اليمين وهم المؤمنون فناجون منها كائنون في جنات يتساءلون بينهم عن المجرمين وحالهم، ويقولون لهم بعد إخراج الموحدين من النار ما أدخلكم جهنم؟ فيكون ردهم: ﴿ لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ (من تفسير الجلالين).

ولهذا لم تنفعهم شفاعة الملائكة والأنبياء والصالحين، ولم يخرجوا من النار دون المشركين إلا لأنهم شهدوا بالوحدانية، فعذبوا كل حسب ذنوبه بالمشيئة.

وقد جاء في تفسير السورة أيضًا: يسأل المؤمنون المجرمين ما الذي سلكم في جهنم؟ فيقولون ما عبدنا ربنا حق عبادته، ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا، وكنا نتكلم فيما لا نعلم، وكلما غوى في الباطل غاو غوينا معه. (تفسير ابن كثير).

ولذلك تركز الآيات أن من شهدوا بالوحدانية، وتركوا الصلاة ولم يحسنوا إلى المساكين، ويشتركون في الجدل العقيم مع الكفار في تكذيبهم بالبعث وطلبهم كتابًا من السماء يقرأوه، وفرارهم من سماع الحق كما تفر الحيوانات الوحشية من الأسود الضارية، ولهذا لم تنفعهم شفاعة شافع يوم القيامة، وكانت عاقبتهم مع الكفار والمشركين والمنافقين، ولولا كلمة التوحيد لظلوا خالدين معهم في النار.

وكان أحد الصالحين إذا قرأ الآيات من سورة المدثر قال: اللَّهم إني أبرأ إليك من هؤلاء القوم الذين أضاعوا الصلاة لإنشغالهم بأمور الدنيا.

﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾: كل مسلم بالغ عاقل يعلم أن الصلاة أهم ركن من أركان الدين، وأنها شرعت في كل الأحوال، وأنها أول ما يحاسب عليه المرء يوم القيامة فإنه إذا صلحت صلح عمله، وأنها نور لصاحبها وبرهان على صدق إيمانه، ونجاة له من أهوال يوم القيامة، وأنها أول ما شرع من الفرائض وآخر ما وصى بها النبي ﷺ، ومع كل هذا نجد البعض يتهاون بتركها لا جاحدًا بها وإنما تكاسلاً وهو يعتقد فرضيتها، فيقع في الإثم الشديد، وتبرأت منه الذمة.

الصلاة تسبيح وتحميد وتكبير وتقديس وقراءة ودعاء، وهي أفضل الأعمال لوقتها، وهي مرضاة للرب ـ تبارك وتعالى ـ وحب الملائكة وسنة الأنبياء ونور المعرفة وأصل الإيمان، وإجابة الدعاء وقبول الأعمال وبركة في الرزق وراحة للأبدان، وسلاح على الأعداء، وكراهية للشيطان، وشفيع بين صاحبها وبين ملك الموت، وسراج في القبر، وتثبيت مع منكر ونكير، وظل له يوم القيامة وتاج على رأسه ونور يسعى بين يديه، وجواز على الصراط، ومفتاح للجنة.

يقول أحد الصالحين: من حافظ على الصلاة في الجماعة كانت له بركة في عيشه، ورفع عنه عذاب القبر، ويعطي كتابه بيمينه ويمر على الصراط كالبرق الخاطف ويدخل الجنة بغير حساب، ومن تهاون بها نزعت عنه البركة، وكان بغيضًا عند

الناس، وإن مات قبضت روحه جائعًا عطشانًا، وفي القبر يجد ظلمة وضيقًا، ويوم القيامة يجد شدة الحساب وغضب الرب سبحانه وتعالى.

وإن لنا في رسول الله ﷺ أُسْوَة حسنة فهذه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول: «كان يحدثنا ونحدثه حتى إذا حضرت الصلاة كان كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه ﷺ»، وهذا من شدة خشوعه، واشتغالاً بإجابة نداء ربه عن كل ما سواه.

ومن أجمل التفاسير ما قيل في الآية من سورة القلم: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (سورة الصافات:١٤٣-١٤٤)، قال ابن عباس: كان من المصلين[(١)].

وكان السلف الصالح يطلبون الحوائج من الله بالصلاة ويستعيذون من وقوع البلاء بالاستغفار.

وقد جاء في تنبيه الغافلين للإمام أبي الليث السمرقندي: ويقال أن الله تعالى لما خلق سبع سموات حشاها بالملائكة وتعبدهم بالصلاة فلايفترون ساعة، فجعل لكل سماء نوعًا من العبادة، فأهل سماء قيام على أرجلهم إلى نفخة الصور، وأهل سماء ركع، وأهل سماء سجد، وأهل سماء مرخية الأجنحة من هيبته، وأهل عليين وأهل العرش وقوف يطوفون حول العرش يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض، فجمع الله ذلك كله في صلاة واحدة كرامة للمؤمنين حتى يكون لهم حظ من عبادة كل سماء، وزادهم القرآن يتلونه فيها فطلب منهم شكرها، وهو إقامتها بشرائطها وحدودها، ولم نجد في موضع من التنزيل إلا مع ذكر إقامتها، وسماهم «والمقيمين الصلاة»، حتى نعلم أن المصلين كثير والمقيمين للصلوات قليل ـ من باب الصلوات الخمس ـ.

---

(١) يُقال أنه قال: «اللهم إني سجدت لك في موضع لم يسجد فيه أحد من قبل»، وأما الثابت فهو ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مسندًا ومرفوعًا في تفسير سورة الأنبياء.

وقد جاء في الأثر: تنادي الملائكة كل يوم، طوبى لأمة محمد ﷺ يصلون صلاة لو صلاها قوم نوح ما أغرقوا، ولو صلاها قوم عاد ما أرسلت عليهم الريح العقيم، ولو صلاها قوم ثمود ما أخذتهم الصيحة.

ولذلك يجب على كل مسلم إذا سمع النداء، أجاب المؤذن باللسان وسعى إلى المسجد بالأقدام، وتسابق إلى ذكر الله باللسان والقلوب والأرواح، وإلا كان متصفًا بالجفاء والكفر والنفاق، والرصاص المذاب في أذن ابن آدم الذي لا يجيب النداء أهون عليه من ذلك.

أما المؤمنون الملتزمون من حرصوا على عبادة ربهم واستجابوا للنداء ولوحبوًا أو زحفًا، وخاصة من ابتلى بالرزق في الدنيا فلم يشغله ذلك عن عمل الآخرة، ولذلك كثيرًا ما نسمع «العمل عبادة» وهي كلمة حق أريد بها الباطل.

وعن الحسن رضي الله عنه وعن والديه وصلى الله على جده الكريم وسلم يقول في الحديث الشريف: «مثل الخمس صلوات كمثل نهر جار على باب أحدكم كثير الماء يغتسل فيه كل يوم خمس مرات فهل يبقى عليه من الدرن شيء»، وهذا معناه: أن الصلوات الخمس كفارة للذنوب دون الكبائر.

وأنه من سره أن يلقى الله راضيًا عنه حافظ على صلاته في الجماعة، فإنه له بكل خطوة حسنة ويرفع له درجة ويحط عنه خطيئة، وهي تزيد خمسًا وعشرين درجة عن صلاته وحده.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من أدرك تكبيرة الإحرام مع الإمام أربعين يومًا كتب له براءتان: براءة من النار، وبراءة من النفاق» (رواه الترمذي وغيره وهو صحيح).

ومن الثابت أنه من صلى صلاته في خشوع واطمئنان وقد أتم ركوعها وسجودها، قالت: حفظك الله كما حفظتني، ثم يصعد بها إلى السماء.

ويقول أحد الصالحين: الصلاة من الآخرة فإذا دخلت فيها خرجت من الدنيا. فإنه لا ثواب على الصلاة إلا بقدر ما فيها من خشوع.

وعن عبادة بن الصامت ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: **«خمس صلوات افترض الله تعالى على عباده فمن جاء بهن تامات ولم ينقصهن استخفافًا بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن تركهن استخفافًا بحقهن لم يكن له عند الله عهد إن شاء رحمه وإن شاء عذبه»**

وقد روى البيهقي عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه تبارك وتعالى»**

وقد بين الرسول ﷺ أن أسوأ الناس سرقة من لا يتم ركوعها وسجودها، لأنه يسرق حق الله.

والصلاة إذا أديت بحقها وعلى وجهها الصحيح كانت لصاحبها ضميرًا يقظًا لا يتكلم بقبيح الأقوال ولا يفعل شر الأفعال، لأنها تقربه من الله، وتنهاه عن الفحشاء والمنكر، وهؤلاء هم من قال عنهم رب العزة سبحانه وتعالى: **﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾** (سورة النور:٣٧)، وهم شهود الصلاة المكتوبة في الجماعة، وهم أولى الناس بكرم الله يوم القيامة.



سِجِّيل

■ *يقول الحقُّ في محكم كتابه:*

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ② وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ④ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ (سورة الفيل: ١-٥).

وهي سورة مكية وعدد آياتها خمس، ﴿ سِجِّيلٍ ﴾ طين متحجر محرق (آجر)، وقد جاء في مختار الصحاح أنها حجارة طبخت بنار جهنم مكتوب فيها أسماء القوم، وقال ابن عباس رضي الله عنه: «من سجيل هي سنك وكل»[(١)]، وروى الطبري هي بالأعجمية، وقد قال الأهري: إنها فارسية، وقيل: هو اسم لسماء الدنيا، وقيل: هو بحر معلق بين السماء والأرض نزلت منه الحجارة، وقيل: هي جبال في السماء.

وقد جاء في تفسير الجلالين: بأن أبرهة ملك اليمن بنى بصنعاء كنيسة ليصرف إليها حجاج مكة، فأحدث رجل من كنانة فيها ولطخ قبلتها احتقاراً لها، فحلف أبرهة ليهدمن الكعبة، ولما توجه لهدم البيت الحرام أهلكهم الله، وكان هذا في عام مولد النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد جاء في تفسير ابن كثير: هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل الذين كانوا عزموا على هدم الكعبة، ومحو أثرها من الوجود فأبادهم الله وأرغم أنوفهم وخيب سعيهم وأضل عملهم، وردهم عن قريش

---

(١) كذا قال عن السدي وعكرمة: «طين في حجارة سنك وكل» (تفسير ابن كثير ـ جـ٤ ـ ص: ٦٣٨).

وما كانت عليه من عبادة الأوثان، ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ ، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال ولسان حال القدر يقول: لم ننصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي ﷺ (من تفسير سورة الفيل).

كان ﷺ نبي الهدى، نبي الرحمة، الذي يبعث الأمل في قلوب اليائسين، والأمن الذي علم المتعلمين، الذي قاد سفينة العالم الحائرة في خضم المحيط إلى شاطئ الله رب العالمين. ولذلك كانت إشارات مولده بشارة لأمته ورحمة للعالمين، ولقد احتفل الله سبحانه بمولد نبينا في عالم الأنبياء، فكان كلما بعث نبيًا أخذ عليه العهد أن يؤمن برسالته ﷺ ، فإن لم يدرك زمانه أوصى أتباعه ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (سورة البقرة: ١٣٢)، وهكذا مع جميع الأنبياء من آدم ونوح عليهما السلام إلى عيسى ابن مريم عليه السلام.

ولقد شغل الله ـ جلَّ وعلا ـ ألباب آبائه المرسلين وإخوانه النبيين على النحو الذي عرضته الآية من سورة آل عمران: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (سورة آل عمران: ٨١).

وقد جاء في خواطر الشيخ الشعراوي حول الآية: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ . يأخذ بعض المستشرقين هذه الآية في محاولة للطعن في القرآن الكريم، فقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾، ورسول الله ﷺ ولد في عام الفيل، إنه لم ير لأنه كان

طفلاً عمره أيامًا أو شهورًا، ولو قال القرآن ألم تعلم، لقلنا علم من غيره، فالعلم تحصل عليه أنت أو يعطيه لك من علمه، أي يعلمك غيرك من البشر، ولكنه قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، نقول هذه قضية من قضايا الإيمان، فما يقوله الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو رؤية صادقة بالنسبة من قضايا الإيمان، فالقرآن هو كلام متعبد بتلاوته حتى قيام الساعة، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ معناها الرؤية مستمرة لكل مؤمن بالله يقرأ هذه الآية، فمادام الله ـ تبارك وتعالى ـ قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فأنت ترى بإيمانك ما تعجز عينك عن أن تراه، هذه الرؤية الإيمانية، وهي أصدق من رؤية العين، لأن العين قد تخدع صاحبها ولكن القلب المؤمن لا يخدع صاحبه أبدًا. (خواطر حول الآية الأولى من سورة الفيل).

كان مولده ﷺ في فصل الربيع، وهو أعدل الفصول: ليلاً ونهارًا ونسيمًا وشمسًا وقمرًا، وهيأ الله ـ سبحانه وتعالى ـ له ﷺ من الأسماء ما فيه حمدًا وبركة وأمنًا وحلمًا وسعدًا، وكان ذلك بشارة لأنه الرحمة المهداة من الله تعالى للبشر أجمعين، فقد دخل الإسلام أقوام كانوا على ضلالة في ملك شتى، منهم من كان يعبد الأصنام، ومنهم من عبدة النار، وآخرون من أهل الكتاب وقد حرفوه، هذا إلى جانب تنوع الألسنة والألوان والقبائل والأوطان والثقافات والأجناس، وكلهم أنقذ نفسه من النار، أما من أنكر رسالته فقد أخر الله سبحانه العذاب عنه، وهذا لأجله ﷺ لأنه خير ورحمة ونور ونعمة تامة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (سورة الأنفال: ٣٣).

وأما من كان من أمة محمد ﷺ ، فطوبى له من وجد نفسه فيمن قال فيهم رب العزة ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (سورة آل عمران: ١١٠).

وقد جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما أطل يوم الحديبية على الثنية التي تهبط على قريش بركت ناقته، فزجرها فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، أي حرنت، فقال رسول الله ﷺ : «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم يعظمون حرمات الله لأجبتهم إليها»، ثم زجرها فقامت.

وفي الصحيحين أنه ﷺ قال يوم فتح مكة: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وفتحها لرسوله والمؤمنين، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

ويرى كثير من المفسرين أن سورة (قريش) متعلقة بسورة (الفيل)؛ لأن المعنى عندهم: حبسنا عن مكة الفيل وأهلكنا أهله، وذلك حتى يأتلف أهلها فيها آمنين، وكما هم آمنين في أسفارهم إلى اليمن والشام.

ومن أجمل التفاسير ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ (سورة الشعراء:٢١٨-٢١٩) ، قال: ما زال النبي ﷺ ينتقل في أصلاب الأنبياء حتى ولدته أمه، وعلى هذا يكون كل أصوله موحدين.

وقال الماوردي في كتابه (أعلام النبوة): وإذا اختبرت حال نسبه ﷺ وعرفت طهارة مولده، علمت أنه سلالة آباء كرام، ليس فيها مسترذل، بل كلهم سادة قادة، وشرف النسب، وطهارة المولد من شروط النبوة.

وقد جاء في صحيح مسلم (باب فضل نسبه ﷺ)، قال ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل كنانة، واصطفى من بني كنانة قريش، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

وقد روى الترمذي عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الخلق فجعلني من خير فرقهم وخير الفريقين، ثم تخير القبائل فجعلني من خير القبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً» (باب ما جاء في فضل النبي ﷺ).

ويرى كثير من المؤرخين أن أهم فضل لمولده ﷺ ما كان من تقدمة قدمها الله لنبيه وبيته، ومع أن أهلها كانوا مشركين، وتلك هي الحكمة الخفية من مولده ﷺ في نصرة الله للمشركين ضد أهل الإيمان بطريق يفوق عالم الأسباب الظاهرة، فقد انهزم جيش ضخم عدده ستون ألف جندي أمام عدد قليل تفرق في الشعاب وتحرز في رؤوس الجبال خوفاً على أنفسهم من معرة الجيش، وكانت تلك هي البداية التي لفتت أنظار العالم في ذلك الوقت ودلته على شرف بيت الله، وأنه هو الذي اصطفاه للتقديس، وأن نبي آخر الزمان سيكون من تلك البقعة المباركة.



«المُقْسِط» سبحانه وتعالى

مسك الختام «المقسط» جلَّ وعلا، عزَّ ثناؤه، وتقدست أسماؤه سبحانه وتعالى.

■ يقول الحقُّ في محكم كتابه:

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٤٧).

جاء في فتح الباري (باب التوحيد): القسطاس هو العدل بالرومية، ويقال القسط مصدر المقسط وهو العادل.

ونضع الموازين ذوات العدل في يوم القيامة، فلا تظلم نفس من نقص حسنة أو زيادة سيئة، ولو كان العمل زنة حبة من خردل أتينا بموزونها وكفى بنا محصين كل شيء - تفسير الآية -.

والمقسط اسم من أسماء الله الحسنى وله وقع خاص عند أهل الكشف[1]، ويعدونه الاسم الأعظم لما فيه دلالة بأن جميع أوامره على مقتضى الحكمة، وما من شيء في الوجود إلا ويتجلى فيه اسم «المقسط» سبحانه وتعالى.

ومن معاني الاسم أنه العادل في حكمه الذي ينتصف للمظلوم من الظالم، ويكمل عدله مع الظالم المؤمن التائب الذي ظل يبحث طويلاً عمن ظلمه فلم يعثر عليه، فيرضى المظلوم، ثم يقول: خذ بيد أخيك وأدخلا الجنة.

---

(١) هذا مصطلح محدث أحدثته الصوفية المنحرفة مدعين أن هناك علم لدني، وآخر كسبي، وأن منهم من ينكشف له أسرار الغيب، ويطلع على خفايا خبايا الأمور. وهذا باطل شرعًا وعقلاً.

وقد جاء معنى الاسم في آخر سورة «التين»: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ (سورة التين:٨) أي: أقضي القاضين وحكمه بالجـزاء العادل، وفي الحديث الشريف: «من قرأ التين إلى آخرها فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين»، وجاء في الآيـة من سورة يوسف: ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (سورة يوسف: ٨٠) أي: أنه سبحانه أعـدل الحاكمين لأنه لا يحكم إلا بالعدل والحق، ومنها يتبين أن الاعتراف بالخطيئـة والإقرار بالذنب مع التوبة الصادقة ليس لها إلا المغفرة والرحمة من المتفضل جلَّ وعلاً، وقد ذكر القاضي عياض في كتابه «الشفا» أن إعرابيًّـا سمع رجلاً يقـرأ الآية، فقال: أشهـد أن مخلوقًا لا يقـدر على مثل هذا الكلام - من بحث إعجـاز القرآن - وذلك لأن الآية القصيـرة تضمنت معاني الـقصة الطويلة وهذا منتـهى الإعجاز، وجـاء أيضًا في آخـر سورة «يونس»: ﴿ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (سورة يونس:١٠٩)، ومعناها: أصبر يا مـحمد على مشاق التبليغ حتى يقضي الله بـينك وبين قومك، وإنه سبحانه خير من يفـصل يوم القيامة، وفي ذلك تسلية له ﷺ ووعيد للمشركين.

والميزان ذكره رسول الله ﷺ وبـهذا أصبح الإيمان به واجبًا لا نقاش فـيه، فقد جاء في الحديث الشريف أن من شهد بالوحدانية لله - جل وعلا - ولنبيه بالرسالة وأن عيسى ابن مريم عبد الله ورسولـه وكلمة منه ألقاها الروح الأمين إلى البتول العذراء، وأن الجنة والنار حق، والميـزان والصراط حق، وأن الساعـة آتية لاريب فيـها وأن الله يبعث من في القبور، كانت شهادته دليلاً على صدق الإيمان وضمن الجنة.

ومن المعلوم أن ليس كل الناس توزن أعمالهم فالكافر ليس له ذنوب إلا الكفر وليست له حـسنات، فمـصيره إلى جـهنم وبئس المصـير، والمؤمن الذي ليـست له ذنوب وله من الحسنات الكثير، فهذا يدخل الجنة من غير حساب، أما فيما عدا هذين فتوزن الأعمال.

وكان السلف الصالح إذا ذكر الميزان تذكروا الحديث الشريف الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: **«كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»** (رواه البخاري)، وذلك لما فيه إشارة إلى أن سائر التكاليف صعبة وشاقة على النفي، ومع أن الكلمتين خفيفتان فإنها تثقل الميزان كثقل الشاق من التكاليف الثقيلة.

وجاء في صحيح مسلم أن أبا ذر رضي الله عنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله بأبي وأمي أي الكلام أحب إلى الله، قال: **«ما اصطفى الله لملائكته سبحان ربي وبحمده سبحان ربي وبحمده»**.

وقد جاء في تفسير ابن كثير: توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتي بالرجل في كفة، ويوضع ما أحصى عليه فيميل به الميزان، قال: فيبعث به إلى النار، قال: فإذا أُدْبِرَ به إذا صائح من عند الرحمن عزَّ وجلَّ، يقول: لا تعجلوا، فإنه قد بقي له، فيؤتي ببطاقة فيها لا إله إلا الله، فتوضع مع الرجل في كفة حتى يميل به الميزان (مسند أحمد).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس بين يديه، فقال: يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويَخونني ويَعصونني، وأضربهم وأشتمهم، فكيف أنا منهم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«يُحْسَب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم، كان كفافًا لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم، اقتص لهم منك الفضل الذي بقي لك»**، فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهتف، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«ما له لا يقرأ كتاب الله:** ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا

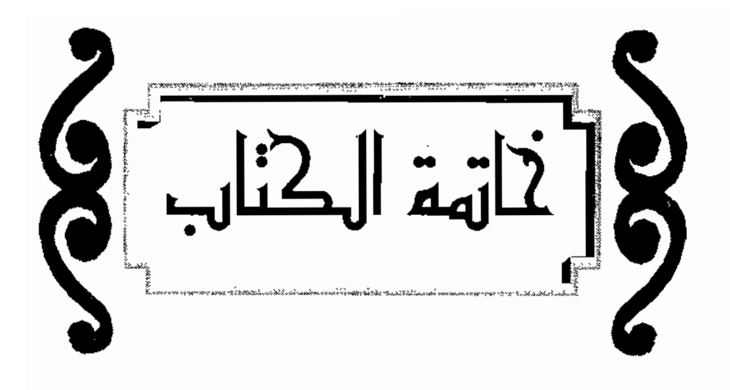
حاسبين﴾ (سورة الأنبياء:٤٧)*، فقال الرجل: يا رسول الله ما أجد شيئًا خيرًا من أني أشهدك أنهم أحرار لوجه الله سبحانه وتعالى.

وقد جاء في تفسير القرطبي: عن الحافظ أبي القاسم عن أنس: أن ملكًا موكلاً بالميزان فيؤتي ابن آدم فيوقف بين كفتي الميزان، فإن رجح نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدًا، وإن خف نادى الملك شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبدًا.

وخرج عن حذيفة ﷺ قال: صاحب الميزان يوم القيامة جبريل ﷺ. (من تفسير الآية ٤٧).

ومن لطائف التفسير للآية الكريمة: كفى بربك وهو أعدل العادلين محاسبًا، محصيًا لأعمال العباد مجازيًا عليها، وعليه فإن العاقل يكون أشد خوفًا، لأن المحاسب لا يمكن أن يشتبه عليه شيء، ولا يعجز عن شيء، سبحانه وتعالى المنزه عن المشابهة والمماثلة، والكون كله متعبد بهذا الاسم الأعظم (المقسط) بيده ميزان الحكمة ومدبر الكون بدقة وإحكام وتقدير، وهذا من معاني الآية من سورة الحجر: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ (سورة الحجر:١٩)، وأيضًا ما بينته الآية من سورة الرحمن: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (سورة الرحمن:٧)، أي: أنه ـ سبحانه وتعالى ـ عندما خلق السموات، أمر الميزان عند الأخذ والإعطاء لينال الإنسان حقه وافيًا.




خاتمة الكتاب

خاتمة الكتاب

▪ **يقول الحقُّ في محكم كتابه:**

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (سورة الإسراء: ١٣-١٤).

هذا بعد النداء: يا أيتها العظام النخرة، قومي لفصل القضاء بين يدي الله رب العالمين.

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٤٧).

ونستطيع أن نعيد البداية من مطلع النهاية: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (سورة الزمر: ٦٩-٧٠).

إلهي وعدتنا ووعدك الحق بأن ترضى من قال حقًا وصدقًا ويقينًا: رضينا بالله تعالى ربًا، وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً.

«إلهي وسيدي إن قضيت عليَّ بالعذاب غدًا فلا تعلمهم بعذابي، صيانه لكرمك لا لأجلي، لئلا يقولوا: عَذَّبَ من دل عليه»[1].

(١) دعا بها الإمام الجوزي كما جاء في (صيد الخاطر) عندما رأى عددًا من الناس يبكون خوفًا من الله، وهو يعظهم موعظة بليغة.

إلهي لقد أخبرنا الصادق الأمين بأن من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، قالها صدقًا من قلبه إلا وحرمت جسده على النار.

إلهي أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وأنبياءك ورسلك وجميع خلقك إنك أنت الله لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك.

سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته، «ربنا اغفر لي ولولدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب»

إلهي بك وحدك لا شريك لك أن تجعلنا فيمن قلت فيهم: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (سورة القيامة: ٢٢-٢٣).

اللَّهم إنا نسألك من خير ما سألك منه نبيك ورسولك محمد ﷺ، ونعوذ بك من شر ما استعاذ منه نبيك ورسولك سيدنا محمد ﷺ، وأنت المستعان وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

«سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين».

اللَّهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين، سلمًا لأوليائك وعدواً لأعدائك، نحب بحبك من أحبك، ونعادي بعداوتك من خالفك.

اللَّهم هذا الدعاء وعليك الإجابة وهذا الجهد وعليك التكلان.

أهم المراجع

١ ـ «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» لابن حجر العسقلاني، دار الريان للتراث/ ط١/ المكتبة السلفية بالقاهرة.

٢ ـ «تفسير الجلالين»، ط مكتبة الجمهورية بالقاهرة.

٣ ـ «تفسير ابن كثير الدمشقي»، ط/ دار أحياء الكتب العربية بالقاهرة.

٤ ـ «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي، ط/ دار الفجر للتراث ـ بالقاهرة.

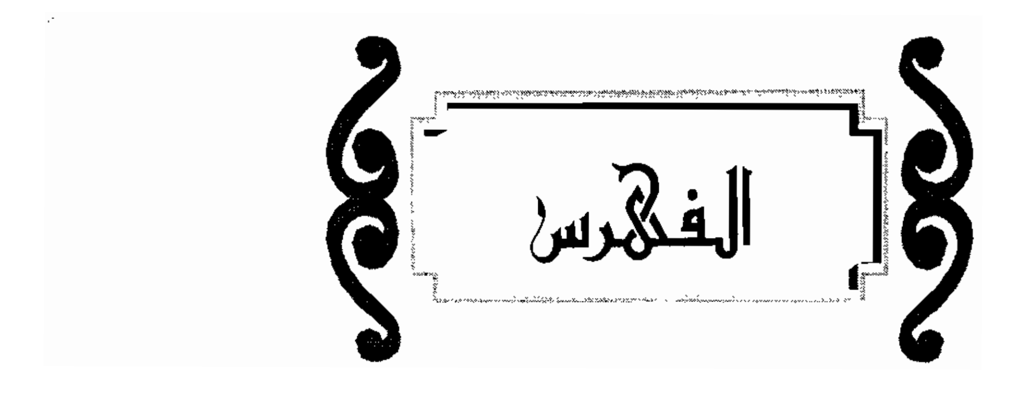
٥ ـ «زاد المعاد في هدى خير العباد» لابن قيم الجوزية، ط/ دار ابن حزم ـ بيروت.

٦ ـ «قصص الأنبياء لابن كثير»، ط المكتبة التوفيقية ـ بالقاهرة.

٧ ـ «تنبيه الغافلين وبستان العارفين» للإمام أبي الليث السمرقندي، ط. دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة.

٨ ـ «إغاثة اللهفان» للإمام ابن القيم الجوزية، ط/ دار مكتبة التراث ـ بالقاهرة.




الفهرس

الفهرس

من مطبوعات دار الإيمان للمؤلف

موقف المرأة الصالحة من

تعدد الزوجات

بقلم

عصام محمد الشريف

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

دار الإيمان

للطبع والنشر والتوزيع

إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩



من أحدث مطبوعات دار الإيمان



فضيلة الشيخ الدكتور

سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين





صفحات مشرقة من
التاريخ الإسلامي

تأليف الدكتور
علي محمد محمد الصلابي



